سهير المصادفة

ABU ABDO ALBAGL

ميس إيچيبت

رواية

الدار

إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معتّرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

ميس إيجيبت

رواية

سهير المصادفة

الدار

الدار للنشر والتوزيع

اســـم العمـــل : **ميس إيجيبت**

النـــــــــوع : روايـــــة

تـــــــــأليف: **سهير المصادفة**

الطبعة الأولـــى : ٢٠٠٨

تصميم الغـــلاف : عمرو الكفراوي

الطباعـــــــــة : مطبعة آتيليه تانتش – المحروسة

الناشـــــــــر **الدار للنشر والتوزيع**

تليفـــــــون : ٠١٠١٤٦٤٧٢١ ٠٠٢

بريد إلكترونـــى eddar_press@yahoo.com

.com\eddar_presswww.geocities

المـــدير العـــام : **محمـــد صـــلاح مـــراد**

رقـــم الإيـــداع : **٢٠٠٨ / ٧٦٣٦**

الترقيم الـــدولى **I.S.B.N. 978-977-6227-32-3**

الدار

حقـــوق النشـــر محفـوظـــة
للدار للنشر والتوزيع

ميس إيجيبت

إلى لؤي مرة ثانية

الملك كليل العينين.. له أذن واحدة وأنف يشم ما ترشحه له الكلاب.

تاج العريان

(١)

تأملها طويلاً وهو يمتص قرص استحلاب لاحتقان الزور... تقترب من الثامنة عشرة من عمرها، حمراء اللون، بلا شك كانت تتورد عند أية لمسة أو نظرة أو ارتفاع طفيف في درجة حرارة الجو فلا ينام بسببها عدد لا بأس به من الرجال ، عارية تماماً بدون زغبها. كيف ثبت السافل بهذا الإحكام مكواة شعر ساخنة بيد خضراء فحبس ثديها الأيمن وأخرى بيد حمراء فحبس ثديها الأيسر؟! خصر يستطيع المرء إحاطته بذراع واحدة، فخذان مصقولان ومهيآن لطيران غامض مساقان مخروطيان كما أنزل بكتاب نسى الآن اسمه واسم مؤلفه، فم شهواني ورومانسي في آن واحد، مفتوح قليلاً كما لو كان في انتظار قبلة من عاشق، أنف يذكرك على الفور بأحلى من قابلت من النساء، شعر أطاره السافل بتسليط مروحة كهربائية عليها. هل أرادها هكذا... لوحة من مدرسة فنية لم يتفق بعد على تسميتها؟! مصلوبة كانت على فتنة باردة. لم ينس القاتل قبل تركها.. ربما.. بدقيقة أن يضع في شقها السفلي مكواة شعر ثالثة بيد سوداء.

ارتجف وهو يتمتم بحسرة وعيناه تتوقفان على وجهها مرة أخرى:

– عينيها متسبلين يا اولاد الكلب.

تخيل أن "عادل أدهم" يرددها معه بنشيج عال وبدرجة الصوت نفسها التي يحدث بها "ميرفت أمين" في فيلم "حافية على جسر من الذهب" تمتم مرة أخرى:

- كان رشيقا وشريرا وسيما والله "عادل أدهم" هذا.

أخذ نفسه بصعوبة، ابتلع نصف قرص الاستحلاب.

والملازم "عمر الجوهري" يتهته إلى جواره

- والله يا باشا أكدنا عليهم بدل المرة ألف مرة ألا يلمس أحد الجثة قبل وصولنا ، لكن لما جينا لقيناهم سبلوا عينيها، معلهش يا "باشا" دي العادات والتقاليد بقى و...

زجره اللواء "تاج العريان" بصوت متحشرج خافت:

- أيوه.. أيوه.. كل واحد مش عارف يشتغل في البلد دي يقول لى العادات والتقاليد.

انهار بجسده الذي يزن الآن أكثر من مائة كيلو جرام على أقرب فوتيه، كرشه ضخم لدرجة أنه لا يستطيع التنفس جيداً حال جلوسه، وجه تركي يميل إلى الاحمرار ورثه عن أمه، عينان واسعتان عسليتان بهما بريق عيني شيطان في العاشرة من عمره أو كأنهما عدسة كاميرا تعكس أشعة الشمس في عز مايو، أنف متغطرس مستقيم يجعله دائم التقطيب حتى لا يصير مثل وجه امرأة حلوة سمينة.

جال ببصره للمرة الأولى في المكان، يعلم أنه الطابق الثاني في كوافير "لوسى" الذي تمت فيه الجريمة، أمامه جثة عارية لـ"نفرت جاد" التي كانت تؤهل نفسها لدخول مسابقة "ميس إيجيبت" ينفذون الآن أوامره بعمل إجراءات نقلها إلى المشرحة.

الطابق الثاني مخصص للمحجبات، به قسم مغلق بستائر قرمزية من البلاستيك مكتوب أعلاها بخط كبير.. "الجسم" وتحته بخط أصغر "تخسيس بالشمع..جمانزيوم أحدث الأجهزة الطبية والرياضية ..إيروبكس ..مساج..ساونا..جاكوزى ..تخسيس بالطحالب.. تفتيت الدهون إزالة الشعر الزائد نقش حنة على الطريقة الخليجية"

ظل "عمر الجوهري " يثرثر في أذنه ، بينما يستمع هو إلى صرخة واحدة عيناها مغلقتان

"نفرت جاد" ابنة صاحبة الكوافير مدام" لوسى "، ومدام" لوسى" قامت بتربية" نفرت" وحدها حتى صارت طالبة بالفرقة الأولى بكلية الآداب بجامعة ٦ أكتوبر، و"جاد" هذا لم يرها منذ عشر سنوات ، وقد قالوا عن" لوسى" الكثير ..فهي التي بدأت حياتها داعرة وفتحت هذا الكوافير من لحمها ، وأن هذا الكوافير لا يحقق أرباحاً تذكر، وإنما هو مجرد ساتر لمهنتها الرئيسية التي تجعلها تركب مرسيدس عيون وتجعل ابنتها تركب أوبل فيكترا موديل ٢٠٠٣ إذن يقولون عن" لوسى " واسمها الأصلي " إخلاص " أنها تعمل قوادة بعد ان تخطت الخمسين وأنها تزوق ضعاف الموهبة من الراقصات الصغيرات في صالات شارع الهرم ثم تدس في أيديهن وريقات صغيرة بها عناوين وأرقام هواتف سائحين عرب ، ورجال الأعمال ومسئولين كبار ، يقولون عن "لوسى " إنها كانت فخورة بمعارفها الكبار وأنها كانت خدومة ، فما انقطعت مياه أو كهرباء عن بيت في شارعها إلا واتصلت بباشا من باشاواتها وبكل أرستقراطية

تمسك بتليفونها المحمول وتهتف:

– ينفع كده يا باشا ؟ بقى جيران " لوسى " يعيشوا من غير ميه لا..لا يا باشا ما كنش العشم يعنى إيه ماسورة ضربت مايصلحوها

قبل الساعة ثلاثة ده أنا سامعة إن عندك عمال وموظفين ما لهمش شغلة ولا مشغلة.. طيب يا باشا.. ربنا يخليك لي يارب.

يقولون إن شارع تحتمس بالهرم لولا " لوسى" ما رصف أبداً، وما تم تشجيره وتجميله بهذا الشكل ، يقولون ما انقطعت حرارة تليفون قط في شارعها ولا عند معارفها وأقاربها وما تأخرت ولا سحبت رخصة سيارة في المرور تخص "لوسى" أو أحباءها.

"لوسى" التي تصرخ منذ اكتشاف مقتل ابنتها حتى يغشى عليها لتنتبه فتواصل الصراخ حتى يغشى عليها من جديد ، تصرخ الآن فينتفض "تاج العريان " صارخاً بدوره كي يتوقفوا.. فيتوقفون، يفتح الكيس المشمع الذي احتواها وينظر في وجهها وهو لا يصدق أن عينيها مغلقتان بتلك الصرامة ، يضع كفه فوق رأسه وينهار من جديد على الفوتيه نفسه، وهو يتحاشى النظر في الوجوه التي شبع من اندهاشها الغبي ومن جمودها أمام يأسه، يغمض عينيه ويردد دونما صوت عيناها مغلقتان... أني لهم أن يدركوا أن نظرة واحدة في عينيها المفتوحتين على المشهد الأخير هي في الحقيقة مجرد مرآة تعكس كل ما حدث، هل كان قاتلها طويلاً وسيماً ؟ له أنف قاطع طريق ؟ على جبهته شامة؟ هل كانت مندهشة لحتفها على هذه الصورة أم كانت تنتظره؟ أهي محبة له؟ أهو مجرد لص؟ هل كان غريبا عنها ؟ استغاثت أم رفضت حتى الاستغاثة وظلت تستحثه على الانتهاء من مهمته بسرعة؟!

إن عيني الجثة تعرضان لي لحظة القتل كاملة حتى بعد حدوثها بساعات، المهم أن تكون العينان مفتوحتين أدورحولهما فتلتقي بعيني وهنا تصيران شاشة سينما تبثان لي بالصوت والصورة كل ما حدث هذه هي كل مآثري ، هذا هو سرى الذي حافظت عليه كثيراً ورفضت

البوح به لأحد. وهل كان لي أن أبوح؟أن أعترف بأنني مجرد جثة تنقل إليها رسائل من الجثث فأقذفها في وجه ضباط الجنائي، وأحظى بعدها بكل طقوس التبجيل كما لو كنت نبيا ؟ "نفرت جاد" لماذا سمحت لهم بأن يغلقوا عينيك؟ ولماذا قتلوك أيتها الجميلة ؟ هل أرادوا التخلص منك لأنك زائدة عن حاجة حياتنا القبيحة ؟ أم أرادوا تخليدك على هذه الصورة – جثة فاتنة – كي لا ينساك قط رجل مثلي يخطو أولى خطواته نحو العجز والشيخوخة؟!

رحل الجميع، لم يتبق أمامه سوى وجه "عمر الجوهري" الغبي، وصراخ " لوسى" الذي يجعله يشعر بأنه في غابة استوائية يستمع إلى زئير لبؤة جريحة.

– يا باشا استأذن سيادتك يا باشا علشان ها نبدأ الشغل.

واضح أنه يتحدث إليه منذ فترة ، تطلع إليه... وجه "عمر" لا يعكس إلا الغباء المطلق، جسد فارع ممتليء بالعضلات مثل لاعبي كمال الأجسام ..في أواخر العشرينيات عينان خاويتان كعيني امرأة يتم تفريغها كل يوم من أنوثتها بواسطة زوج فحل فلا يتبقى فى بريقهما إلا الشعور بالرضا عن النفس والشبع مما يؤثر على ملامح الوجه كلها فتصير بلهاء... شفاه متدلية قليلاً ، أنف يتجرع الهواء بجوع وصحة مبالغ فيها ومنفرة، ساقان مفرشحتان وخطوات واثقة ومنتظمة وبطيئة مثل خطوات بطة متقيحة تسير على ترعة ، شعر مبعثر ومنطفيء وملموم أو محجوب خلف إيشارب لا يستطيع حجب حالته ، فالعينان تفضحان غالباً كل شيء..انتبه إلى نفسه متسائلاً.. لماذا أصبحت تلك الهيئات تثير في الغثيان؟! لماذا اعتبرهم وجوهاً ميتة ؟ هل الموت لا يعنى إلا الشبع ؟ واضح أنني أودع اليوم قدرتي الجنسية وإلى الأبد لماذا أنا متأكد أن

عيني" نفرت جاد" المغلقتين لو تركتا مفتوحتين لما استطعت رؤية شيء ؟ هل فقد بصيرتي مرتبط بفقد قدرتي الجنسية؟

تحركت شفتاه دونما صوت..إنه يوم خاص جداً في حياتك يا "تاج"

ظل "عمر الجوهري " يتحدث إليه وهو ينحني أمامه بقامته الطويلة:

– يا باشا يا باشا.. والله يا افندم ها نمسكه ، إن شاء الله ها نمسكه.

تطلع في وجهه من جديد جبهة متسعة تتوسطها علامة صلاة سوداء ابتسم في وجهه ، وهو يزيح عن عينيه صورة البطة المتقيحة وقال بصوت منخفض وهو يتكيء على مخارج الكلمات:

– آه يا عمر.. تمسك مين يا روح أمك ، تمسك مجهول القضية ضد مجهول وابقى تعالى تف على قبري لو مسكته.

تجهم وجه "عمر الجوهري" لقد حرمت عليه حتى الشكوى لأبيه لواء مدرعات "محمد الجوهري" من صديقه المخبول " تاج العريان" هذا ، إنه يستمتع بسبابه كلما وقعت عليه عيناه، ثلاث سنوات وهو يسبه بشكل متواصل، جرب "عمر" أن يشكوه لأبيه في بداية عمله فرد على تليفون أبيه بقهقهة وصوت جهوري:

– دي محبة والله يا باشا ، والله أنا مستغرب إزاى مخلف الواد الغبي ده وانت راجل بعشرين كتيبة، بقولك إيه يا "جوهري" ابنك ده محتاج يسترجل شوية أو خليه يغير البوليس يا أخي ويشتغل مثلاً مدرب أسود، بيشتكيلك ؟ ده هيطارد المجرمين ازاى يا أخي ، ده مش عارف حتى يميز إني باشتمه زى ابني " عارف" عشان بحبه.

وفى صباح اليوم التالي عندما دخل عليه مكتبه وكان مكتظاً بزملائه، تقدم "عمر الجوهري" واثقا من تغيير معاملة " العريان" له فبادره مبتسماً:

– صباح الخير يا باشا ده يا افندم تقرير الطب الشرعي اللي سيادتك طلبته... والتحريات...

– احفظه في ملف القضية، وتحرياتك الغبية اكتبها في ورق وخلى أمك تلف فيه محشى ، تحريات قال !! أنت حتى مش عارف إنى جبت لهم القاتل الحقيقي وإنه بيعترف دلوقتى ؟! بص يا "عمر" أنا عايز أمك المرة دي هي اللي تتصل بي علشان تشتكي لى روح بقى الحق قول لها.

هتف فجأة وهو ينتفض من على الفوتيه:

– بص يا "عمر" أنا ها قولك نصيحة

ابعت أمها للدكتور"عبد الرحمن عبد الرحيم"، أو هاقولها هنا بمجرد ما " لوسى " تفوق ها نعرف حاجات كتيرة، وخلى بالك منها، أول حاجة ها تعملها انها تحاول الانتحار.

ثم تمتم وهو يتطلع من النافذة

– والله ما حد عايز " عبد الرحمن" ده إلا أنا.

أمامه وبرغم الغبار الكثيف يظهر أبو الهول بأنفه المكسور ، يقف حارساً جهماً هكذا منذ آلاف السنين، يمنح وجهه المحايد الآن للمومسات، والمنتقبات ، والخرتية ، والتجار، وأصحاب الحانات والملاهي والزوايا التي بنيت أسفل كل برج وظلت في غفلة من وزارة الداخلية تردد قبل كل صلاة جمعة وفى التوقيت نفسه خطبة ذات مضمون واحد، يحرس كل شيء بحياد تام.. أولاد الكلب والجوعى

واللصوص والقتلة والمقتولين وأنفار العاملين الذين تراصوا في الجزيرة الفاصلة بين شطري شارع الهرم يعرضون عضلاتهم للبيع وأمام كل منهم عدة عمله.. فأس .. قصعة.. معاول هدم ..أجولة لحمل حطام ما يهدمون.. رغيف ممتليء بأقراص الطعمية.

يشيح أبو الهول بأنفه المكسور عن شارع الهرم الذي مهده وزينه الخديوي إسماعيل ليصل بين عجيبة من عجائب الدنيا السبع وقصره وقت زيارة سلطان الإمبراطورية العثمانية "عبد العزيز" لمصر عام ١٨٦٣ كيف ترك أبو الهول صلاح الدين الأيوبي يقتلع الأحجار من الأهرامات ليشيد بها قلعته عند سفح المقطم ، تلك الأحجار التي نقلت عبر شارع الهرم نفسه الذي قتلت فيه " نفرت جاد " ؟! كيف أغمض أبو الهول عينيه أمام جمال" مس إيجيبت" ولم يستطع حمايتها؟!

هبط الدرج متثاقلاً وخلفه تئز خطوات " عمر الجوهري" القوية الفتية، تجاوز "لوسى" الملقاة على كنبة في الطابق الأول كخرقة متعبة في يد شغالة مجتهدة، مغشي عليها الآن وغائبة دون شك في حلم حلزيي واحد.. أن كل ما حدث كان مجرد كابوس.

فتحوا له باب سيارته ، دخل بصعوبة ومازالت في يده ورقة واحدة طبعت على عجل من ذاكرة كمبيوتر ، ووجدت مكورة وملقاة في سلة المهملات، وربما كانت الشيء الوحيد الذي تركه القاتل ليست مفهومة تماماً إذ أنها لا تحتوى على أسماء زبائن الكوافير أو صديقات "لوسى" أو "نفرت جاد" ولا يجمعهن أى موضوع أو حيثية أو صفات مشتركة فتح كفه.. أراح رأسه على المسند ، وبمجرد أن استقر سائقه على الطريق السريع المتجه إلى بيته بالشيخ زايد حتى استغرق تماماً في تأملها إلى مالا نهاية...

– ليلى طوسون*

– كريمة صبري /

– سامية عزت ؟

– درية ماهر /

– سها عثمان ؟

– وفاء أحمد ؟

– سلوى على ؟

– صفاء منصور /

– آمال محمود ؟

– عفت عزمي ؟

منذ القرن الثانى عشر ونحن نجأر أغيثونا نحن هنا عالقون.

عبد الرحمن الكاشف

(٢)

صعد إلى حجرة نومه ماراً بزوجته المكومة على كنبة أمام التليفزيون، تحت قدميها اثنتان من الشغالات، في حجرها كالعادة ما لا يقل عن نصف كيلوجرام " لب" لابد أن تقضى عليه كل ليلة ، تلقى بقشره على الأرض بمتعة بالغة ، الفتاتان تلمان القشر وتضعانه في سلة صغيرة وتتابعان المسلسل باهتمامها نفسه ، تكاد تأكل وجه "نور الشريف" مع حبات اللب الصغيرة وإحدى الفتاتين تهلل:

– والنبي يا"هانم" ليتجوزها دي كمان،أبقى شوفي كده ده "الحاج متولي".

هذا المسخ هو ما تحولت إليه " نسل شاه " التي اختارها من بين مئات الفتيات لتكون أم أولاده وتحافظ على شرفه وهو بعيد عنها ليالي طويلة يصطاد فيها المجرمين.

كتلة اللحم هذه من اختراعه هو ، تملأ نصف سرير ١٦٠ سم وهو يملأ نصفه الآخر، ينام كل منهما وظهره إلى الأخر، ولا مجال بالطبع لأي تصور لتغيير هذا الوضع ، فلن يكون مثلاً فوقها أو تحتها ولن يكون أمامها أو خلفها ، لطالما تساءل بعد أن وصلا إلى هذا الحجم كيف

تمارس الفيلة الجنس ؟! "نسل شاه" التي كانت جميلة الجميلات تخجل الآن من جسدها ! آخر مرة رآها عارية هاله كم التعريجات التي في فخذيها وذراعيها وبطنها المقسم إلى طبقات ،فأحس بشفقة بالغة، صفق الباب بعنف وهو يبتسم ويتساءل

– هل تغنى شاعر عربي بلحم المرأة أم يهيأ له هذا ؟! هل هناك بالفعل بيت شعري يتحدث عن امرأة تدخل اليوم من الباب وتدخل أردافها غداً ؟!

ارتفع صوته بالضحك وهو يتأمل كرشه الذي يشبه وجه زوجته الذي صار بدون معالم ، منذ ذلك اليوم أصبحت علاقته بها غير معقولة.. يطرق باب غرفة النوم أولاً ثم يطرق باب الحمام ثانياً، يبدل فيه ملابسه فقد أصبح خجلاً منها ومن نفسه وظل يتخيل أن لديها التصورات نفسها عنه.

الفتاة النحيفة الملفوفة التي كانتها "نسل شاه" تقف ماثلة طوال الوقت أمام عينيه، لم يكن سعيداً معها أبداً فلقد توهمت أنه يريدها محترمة معه في الفراش، هكذا علمتها أمها على ما يبدو، هامدة تحته كحشية، تعطيه انطباعا بأن ينتهي مما يفعل بسرعة وهى تشعر بالعار، نعم.. العار.. هذه هي الكلمة المناسبة، وبمجرد أن ينتهي منها تهرع إلى الحمام، تتخلص سريعاً من آثاره ورائحته وتعود وكأنها في حفلة استقبال ، تصلح وضع ياقة الروب، وتعطى له ظهرها وهى سعيدة فقد أثبتت له أنها قطة مغمضة وجاهلة وليست هائجة على رجل حتى ولو كان زوجها.

أخذ يدور حول سريره وهو يبرطم ويجز على أسنانه.. تلك الحيوانة التي استغفلتني سنوات طويلة، ألا تعلم أننا نولد ونحن نكاد نعرف كيف يمارس الجنس؟! الحيوانة لم تفرح بي مرة واحدة حتى لو كلفتها فرحتها

هذه أن أهمها بالعهر، لم تجرب أن تتذوقني للنهاية فكان عقابها أن تتحول تدريجيا إلى تلك الكتلة الهلامية الجيلاتينية التي أصبحت عليها الآن. أنا أيضاً حيوان فلطالما تمنيت أن أسبها وأنا فوقها ولم أفعل، تمنيت أن أجعلها عاهرتي وعشيقتي التي ارتكب معها الإثم، ولكنني كنت أبحث عن ذلك فوق أسرة نساء أخريات محتفظاً بها كما شاءت وشئت – أبو الهول –

الذي يحرس بيتي وأولادي وشرفي.. شرفي ؟!

تنهد "تاج العريان " وبرطم من جديد.. لماذا تقتل "نفرت جاد" وهي في الثامنة عشرة من عمرها، ويظل "محمد العريان" في سريره لا هو حي ولا هو ميت؟!.

اصطدم بابنه "عارف" وهو مندفع من غرفة جده، انفجر ضاحكاً بصوت عال:

– والله يا بابا جدو موتنا من الضحك النهارده، فضل يعاكس "ميرنا" ويوصف لها لما يخف ها يعمل فيها إيه، ده باين ان جدو كان "كازنوفا" كبير في شبابه.

– مين" ميرنا " ؟

– صاحبتي، ومشروع ممثلة كبيرة قوى، ها تبقى "سعاد حسني" تانية.

– مفيش "سعاد حسنى" تانية، تعالى، أنا عايز أسألك سؤال.

نشر "تاج العريان " أمامه الورقة التي خرج بها من كوافير"لوسي" وقال وهو ينظر في وجهه بتمعن وكأنه يحقق معه:

فكر الأول وبعدين قول لي لو واحد في سنك أو أكبر منك شوية

كتب الورقة دي على الكمبيوتر وبعدين كان حريص إنه يطبعها ويلغيها من على الجهاز، تعرف تقول لي يعنى إيه؟

قرأ"عارف" الأسماء والعلامات بصوت عال ثم انفجر ضاحكاً وقال وهو يحاول أن يسيطر على الكلمات:

– الله يجازيك ياجدو.. ها فضل اضحك طول النهار، شوف يا "باشا" معنى كده ان الراجل ده عايز النسوان أو البنات دول وإنه ما طالشى منهم إلا "ليلي طوسون" والباقيين مراحل، يعنى اللي بيسأل عليها واللي عرف هيه فين بس مستني ، يعنى...

– روح لجدك يا أهبل، دي ورقة متاخدة من مكان جريمة، وشبه مؤسسة كبيرة للدعارة، والواد الغبي اللي زيك "عمر الجوهري" شاكك إن دي بداية شغل سفاح نساء.

همس "عارف" ساهماً:

– اتقتلت واحدة النهارده؟!

– ومش أي واحدة يا خويا.. دي "نفرت جاد" أو "مس إيجيبت" والسفاح زوق جثتها بمكاوي الشعر الساخنة، وأخذ معه قطعة من عضوها التناسلي.

ردد "عارف"وهو مغمض العينين كأنه يتخيلها

– ياااه..!

ثم انتفض مستدركاً بثقة

– ولو يا "بابا" الورقة دى مش ممكن تكون ليها علاقة بالجريمة، ليه يعنى هو سفاح غبي كده.. ده كفاية يشوف كام

فيلم أمريكاني عشان مايسبشي ورقة زى دي.

تمتم وهو يتابع خطوات ابنه المرحة وهو يبتعد عنه.. عليك أن تصرخ الآن يا "تاج العريان"، عليك أن تجد سبباً آخر للصراخ ، أنت الآن مجرد من كل شيء.. بصيرتك و.. رجولتك ومن أي إنجاز يمكنك الفخر به، حتى ابنك هذا المخرج العبقري كما يقولون ليس من حقك أن تفخر به فالحيوانات أيضاً تنجب ، أصبحت عارياً تماماً يا "عريان" حتى من الرغبة في الحياة فأنت لا تشبه أباك " محمد العريان " الذي لا يريد الاستسلام للموت حتى بعد أن فقد السيطرة على بوله.

مازال واقفا في الممر أمام النافذة ، يتابع من خلال الشيش ابنه وصديقته – جميلة فعلاً وتشبه "سعاد حسنى"– وهما يقفزان في حوض السباحة، لا يجرؤ بعد على الدخول إلى غرفة أبيه، فأحيانا عندما يعود إليه وعيه ينظر في وجه "تاج" ويتعرف عليه فيسبه دونما مناسبة أو يراه في الثالثة من عمره فيعنفه

– ستصير رجلاً عسكرياً ، فتعلم أن تمسح مؤخرتك بنفسك وانزع إصبعك من انفك يا ابن الكلب.

تبتسم الممرضة أو الخادمة فيخرج من غرفته ممتقع الوجه،

دخل أخيراً، وجده مستيقظاً وفى كامل وعيه وتألقه، ابتسم ،

لاشك ان وجود" ميرنا" له وقع السحر حتى على رجل تجاوز الثمانين، لاك شيئاً وهمياً في فمه، وهدلت شفتاه على شبح ابتسامة ثم همته بصوته المشروخ:

– مراتك، العجلة دي هاتموتنى يا تاج، أقول لها اعملي لى مهلبية، تبعت لى البنت الناشفة دي بخضار سوتيه، دي مشغلة ألف واحدة في

البيت مابعرفهمش من بعض وهى العجلة بتعمل إيه طول النهار؟ بتاكل بس، اسمع يا"تاج" طلقها يابنى.. يالله بسرعة قبل مايبجوا عيالها.

ضحك "تاج" وتمتم: والله عندك حق يا "باشا"

فهنه " محمد العريان " دون دموع

– يابنى دي كل يوم تملى البيت بتقلية الملوخية وهى عارفة ان ريحة الأكل بتكتم نفسي.

ثم نام فجأة كالعادة.. سقط رأسه الباكي على صدره.

نعود عندما نكبر إلى سيرتنا الأولى.. فم خال من الأسنان، نبكى دونما دموع، نحب ونكره اتكاء على إشباع رغباتنا الأولى ..الطعام والنوم والنظافة، تتداخل الأحداث والأزمنة ، الواقع والخيال فلا نكل من اللعب والتهتهة لننال إعجاب من حولنا أغلق عليه الباب ، ذهب إليهن أمام التليفزيون وبادرهن صارخاً، فها هو يجد سبباً آخر للصراخ:

– انت وهى ابقوا اقفلوا باب الزفت المطبخ وانتم بتطبخوا، البيت كله ريحته ملوخية . انتم عايزين تقتلوه ؟!

أجبن في نفس واحد بما فيهن " نسل شاه":

– والله يا باشا بقى لنا اسبوع ما عملنا ملوخية.

ثم أمرهن " نسل شاه":

– هاتى يا بنت الريموت.. على "الحاج متولي".. قال ملوخية قال!

استدار ليدخل حجرته، تطارده تلك العيون التي رحل ناسها وبقيت هي إلى الأبد جالسة بهدوء تتطلع إلى المشهد الأخير الذي نظروا إليه.. كم رأى من تلك العيون! عيون طارت من جثث أصحابها وأقعت فوق

كتفي من أحبت حتى تعذب وجن ، وعيون ذات نظرة هائمة تظل عالقة بالمكان وتعمل على تشويش الأحياء بمجرد الاصطدام بها، وعيون ملتاعة، وعيون لها نظرة قطه شرسة لم تستطع قتل غريمها.. فقط لأنه سبق وقتلها هو.

تنهد وهو ينظر إلى سقف حجرته.. ملت العينان – على ما يبدو – من خضرة الأشجار واصفرارها ومن المباني ومن الوجوه، شاهدت العينان – على ما يبدو – كل الأفلام ، القديم منها والجديد وتقلبات الجو والبحار والأنهار ,ودورة الموت والحياة، وطلوع الشمس وغروبها، وعنفوان أفخاذ النساء وترهلها ، تابعت العينان– على ما يبدو – كل ما يمكن أن يرى منذ سبعة آلاف عام وحتى الآن وعليهما أن تستريحا وتفقدا قدرتهما على الإبصار.. منذ متى وأنا أقف على هذا الثبات؟ منذ متى وأنا أسمح لثبات المشاهد أن يسلبني ميزتي الوحيدة؟

تابع خطوات الدكتور "عبد الرحمن" وصوته الواثق الحاد النبرات والحلو في الوقت ذاته، به مسحة سخرية يعابث بها " نسل شاه":

– يا هانم اللي بنعمله في سنة بيهده "اللب" في يوم واحد.. هه "الباشا" نام؟

تأمل "تاج العريان" وجهه المبتهج المبتسم مغتاظا، ابتسامته جذابة لحد يصعب وصفه ، حاجبان كثيفان ، عينان واسعتان خلف نظارة طبية أنيقة ذات إطارات ذهبية، شفتان رقيقتان داكنتان تناسبان شخصا إيروتيكيا، أنف خاص جداً معقوف بخفة وانسيابية، كل هذا على قامة تقترب من القصر، لتسمح له بهذه الخفة في تحركاته التي تشبه تحركات طفل يعبث.

لطالما تساءل "تاج" لماذا تتصارع عليه النساء؟ وهو الذي طالما شبهه بالبيكمون، ربما أحبن فيه – كلهن – ذلك الطفل العابث الذي سرعان ما يكتشفن أنه رجل ناضج محمل بكل خبرات أفلام البورنو.

– يعنى إيه يا "تاج" تخليني أسيب العيادة في الوقت ده ، هو إيه جبروت وخلاص؟

– وانت بتعمل إيه في العيادة غير التقفيش في الزباين؟

– احترم نفسك يا"تاج" أنا أغلب زبايني دلوقتى رجالة تعبانين زيك وصحابي كمان. يعنى لا فلوس ولا نسوان.

يقترب الدكتور "عبد الرحمن" من الخمسين وهو بكامل جاذبيته، يبدو كرجل في الثلاثينيات، لم يتزوج بالطبع، ولماذا يتزوج رجل مثله وهو محاط بقطيع من الفاتنات اللاتي ينتظرن مجرد تليفون منه حتى يهرعن إليه؟

يتذكر أول مرة رأى فيها الدكتور "عبد الرحمن عبد الرحيم الكاشف" منذ عشر سنوات في حفل زفاف أحد أصدقائه، كان هو "تاج" في قمة مجده كرجل وسيم فارع القامة ذي سلطة وهيبة، ودعته قامة "عبد الرحمن" القصيرة وخجله وتهذيبه المبالغ فيه إلى أن يسخر منه، فما أن قدمه أحدهم إليه:

– الدكتور "عبد الرحمن" أمراض نفسية ، دكتوراه في علم النفس وجاى من أمريكا لنج.

حتى قهقه "تاج العريان"، فالتفت إليه الضيوف وهو يقول بصوته الجهوري:

– علم نفس إزاى يعنى؟ أنا نفسي من زمان حد يقول لي يعنى إيه علم نفس؟

وعلى عكس ما توقع " تاج" ابتسم " عبد الرحمن" ابتسامته الجذابة وعيناه تتسعان بدهشة حقيقية كدهشة طفل يشاهد قزماً لأول مرة

– ياااه فعلاً يا "باشا"؟!

– آه والله يا دكتور، إذا كان ربنا خلق نفس كل إنسان نسيج وحده كبصمة الإصبع، تسمح تقول لي إنتم عملتوه علم إزاى؟

– عندك حق يا "باشا"، ولذلك طالب كثير من علماء النفس بتبني مناهج كيفية "كالمنهج الفلسفي الظاهراتى" في دراسة الظواهر النفسية بديلاً عن المناهج الكمية التي تقوم على البيانات والإحصاءات، ولكنها تنتهي إلى نتائج تافهة، كثيرا ما تتناقض إذا ما أعيدت نفس التجربة.

كان يتكيء على مخارج الألفاظ، ويدير كأسه بهدوء في كفه، وأحاطه صوته الواثق بهالة غامضة جعلت عددا من الفتيات يتحلقن حوله، حتى "تاج" نفسه لم يستطع منع نفسه من الإعجاب به، بل قرر داخله أن هذا الرجل القصير ذا سحنة الكاهن – الذي يستحيل أن يكون برجه سوى الحمل– سيكون نداً وصديقاً له.

مال "عبد الرحمن" على وجه "تاج العريان " الساهم

وقال بجدية وحنان

– خير يا "تاج" مالك يا رجل؟

– خلاص ما بقتش رجل.

سكت "عبد الرحمن" ثواني ، ثم انفجر مقهقاً وتنهد وهو يمسح

نظارته ويهم بالانصراف:

– يا غلبك يا "نسل شاه".

وعاد إلى الضحك

– اسمع "يا تاج" هو ده هيحصل فى يوم من الأيام طبعا، لكن لسه بدرى.. ماتخافشى. تعال بكره العيادة نشوف الحكاية دي.

قال "تاج" ببرود ووجهه مازال ساهماً

– ما تترزع.. وتقعد معايا شوية.

– ماينفعشى، انت مشغلنى برده يا "تاج" انت ناسي إنك بـــاعتلى عسكري ومعاه الست" لوسى" بتاعتك ، وإني لازم أهديها في يوم وليلة.

وعاد إلى الضحك مرة أخرى ، أعاد غلق باب الغرفة ثم قال وهـــو يحاول السيطرة على كلماته:

– انت فاكر إيه يا "تاج".. إنك ها تدخل قبرك وصولجانك واقف وشغال.

قذفه "تاج" بوسادة تحاشاها " عبد الرحمن" وأغلق البـــاب ثم عـــاد وفتحه وقال مبتسماً وبجدية تامة:

– على فكرة يا" تاج" دي فعلاً أول حاجة بتبطل شغل فينا ، ولو انت فاكر زمان هي آخر حاجة بتبدأ الشغل فينا ، خد المهدىء ده ونام وهانتظرك بكره.

يدا الملك مصطبغتان بدم الحقيقة وقامته المهيبة بلا ظل وقلبه يهـــيم وحيداً فى عراء الليل.

تاج العريان

(٣)

أسراب الغربان تحلق فوق رأسه تماماً، الحقيقة الوحيدة التي يعرفها جيداً أنه لم يمت بعد، وأن الذين يضعون أصابعهم على كل جزء من أجزاء جسده ليسوا إلا أهله وأطباءه وخدمه، يقلبون عضوه الذي طالما ركعت أمامه أجمل النساء، الآن يمسكون به وكأنه عرف ديك ميت، لم يمت بعد وأمام عينيه المفتوحتين تتجلى طوابير عسكرية شديدة التنظيم والصرامة، بمجرد أن ترمش أهدابه حتى ينقلب عساكرها وضباطها ولواءاتها على الأرض مصوبين ألسنتهم إلى السماء وهم يولولون كالنساء، يغمض عينيه فتنهض الطوابير العسكرية شديدة التنظيم تضرب الأرض وترفع يدها بتحية عسكرية كما في لعبة من ألعاب الكمبيوتر.

أمامه الدكتور "عبد الرحمن" صديق ابنه "تاج".. يعرف هذا جيداً، هذا الوسخ ينغز إليته بشيء يشبه الصاروخ ويضحك في وجه "تاج":

– الباشا كويس جداً يا "تاج" مات إيه يا راجل.. ده الباشا هيموتنا كلنا، روح انت استعجل الدكتور بتاعه.

يخرج "تاج" ويترك له هذا الرجل ذا الأنف الغريب ، يقترب منه

يدلك جبهته ويهمس في أذنه وهو يظن أنه لا يسمعه

– مش كده يا "باشا" مش انت ها تموتنا كلنا، والله برافو يا "باشا" بدأت حياتك بمصادرة قصور الباشاوات، وها أنت تلحق أن تموت في قصر، وزعت عزب الباشاوات يا "باشا" واستبدلت القطن طويل التيلة بفواكه لا طعم لها ولا رائحة، وها أنت ترقد خلف نافذة تطل على عزبتك التي تضاء كلها بكبس في غرفتك بالنيون الأخضر ، إذا ما زارك ليلاً أحد أصدقائك الباشاوات، والله برافو يا "باشا" كل هذا في نصف قرن فقط! اطمئن يا باشا سنبقى على حياتك حتى تتفرج على ثمار كلْ ما بذرتم من بذور.

"تاج" الذي يتمنى كل لحظة موت أبيه هو نفسه الذي يصرخ ويهرع لإنقاذه إذا ما شك أن أنفاسه هدأت، يحلم دائماً بسرادق عزاء ضخم في "عمر مكرم" يحضره لفيف من المسئولين ورجال الأعمال والفنانين أصدقاء ابنه" عارف"، يتسامرون ويتذكرون أمجاد "العريان" الكبير ثم يعود إلى بيته لينام مرتاحًا، فأخيراً لن يخجل من فكرة أنه هو العجوز مازال أبوه على قيد الحياة.. ربما ينقذه كل مرة لكي يكفر عن حلمه كل لحظة بموته ، يفكر وهو يقلب ويتأمل صفحات قديمة من مجلات وجرائد... هل من الطبيعي أن يعيش الأب إلى الأبد ؟ وينتظر في الوقت نفسه وصول طبيب أبيه بلهفة.

يتأمل ما في يده.. هذه هي كل تركة "نفرت جاد" قصاصات ملونة من أوراق مجلات فنية ونسائية ترجع إلى ثلاثة أعوام، كلها من حفلات تتويج ملكة جمال على عرش الجامعة اللبنانية مثلاً، أو ناد رياضي كبير أو مدرسة، أو عاصمة من عواصم العالم، إلى جوار صور ملكات الجمال المتوجات كتبت" نفرت جاد" على الهامش بخط منمنم صغير "نفرت

أجمل" كما أنها أحاطت رءوس لجنة التحكيم من الرجال والنساء بعلامات تعجب صغيرة، ووضعت تحت أسمائهم خطوطاً بالقلم الفلوماستر الأخضر.. كانوا من أساتذة الجامعات أو أعضاء مجالس إدارة النوادي الرياضية أوملكات جمال سابقات ، بالإضافة لبعض الوجوه الفنية المشهورة.

كلهن ملكات جميلات سواء كانت بشرتهن بيضاء أم سمراء أم سوداء أم صفراء، مجهولات بالنسبة له وبالتأكيد بالنسبة لـ "نفرت جاد" نفسها.. في ابتسامتهن جميعاً روح واحدة متوثبة نحو جمال مجهول وسلام لم تعرفه البشرية قط، ظل يتتبعهن وهن يقطعن بمرح قوالب الحلوى في الحفلات، أو وهن يغيرن أزياءهن الجميلة الملونة، وهن يقبلن وصيفاتهن، وهن يبكين بعينين لامعتين حالمتين حال فوزهن، أو عدم فوزهن. وهن ينتظرن إعلان النتيجة بأهداب متوترة وابتسامات مشرقة. شاهد لحظة تكليل ملكات الجمال بتاج الجمال، وتلصص على قبلات الراعي الرسمي لإحدى المسابقات على وجنتي ملكة جمال محطة فضائية تليفزيونية، ثم شاهدهن وهن يقبلن الأطفال الفقراء والمشردين ويزرن المستشفيات في كل أنحاء العالم.. يا الله- لماذا لم يهتم بهذا العالم من قبل؟! كان عندما يرى فتاة جميلة تشبه هؤلاء الجميلات لا يفكر إلا في أكلها وإذا ما كانت غير متاحة له... مثلاً من القرن الخامس عشر أو من أستراليا فقد كان يفكر فقط في من يا ترى سعيد الحظ الذي سيأكلها ؟ ولكنه لم يفكرأبداً في إمكانية وضع تاج على رأسها.

كل ما قطعته "نفرت جاد" من الصحف والمجلات كان مفهوماً بالنسبة له، فهي الجميلة الثرية المحمومة بفكرة أن تكتسح مسابقة "miss Egypt" ثم تنافس على لقب ملكة جمال العالم فتسجل أول سبق

لمصر منذ آلاف السنين منذ كانت نفرتيتي هي جميلة الجميلات ، ولكن ليس مفهوماً تماماً لماذا تذهب "نفرت جاد" إلى دار الكتب وتصور عدداً من مجلة "العروسة" المصورة والتي كانت تنشر في عنوانها أن مبدأها نشر كل ما يستحق النشر من صور وأخبار وفوائد لهم السيدات خصوصاً والرجال عموماً، أعلنت المجلة في عدد من أعداد العام ١٩٢٨ مسابقة للجمال لصغار البنين والبنات وكان الهدف من المسابقة هو حمل الآباء والأمهات على الاعتناء بصحة أطفالهم، لأن الجمال لا يظهر في الطفل إلا إذا توافرت فيه شروط الصحة بكاملها، وشروط المسابقة أن يكون سن الأطفال الذكور ما بين ستة أشهر وعشر سنوات والبنات مابين ستة أشهر وثلاث عشرة سنة وأن تكون الصورة حديثة يلتقطها مصور فوتوغرافي محترف! وقد فاز في هذه المسابقة المصور الشهير "زولا" وفاز الفتى النجيب" يحيى إكرام" وعمره ست سنوات والآنسة اللطيفة "ليا" كريمة "جواد بك" وعمرها خمس سنوات بالجائزة، وقد ظهرت الآنسة "ليا" في الصورة بعينيها النجلاوين، وابتسامتها الغامضة التي تشبه ابتسامة الموناليزا، وقد وضعت كفها تحت ذقنها الملائكي، التقط "زولا" الصورة لها وهي مستندة إلي مسند كرسي عال، وقد طوق عنقها عقد بسيط على فستان عاري الصدر والأكتاف من الأورجانزا.. ليس معروفا لونها أو حتى لون العقد فالصورة بالطبع أبيض و أسود.

اكتشف "تاج العريان" الشبه بين "ليا" و"نفرت جاد" وقرر أنه سيحاول غداً رؤية صور "نفرت جاد" وهي في الخامسة من عمرها ليتأكد من ذلك، أزاح قصاصات الجرائد والمجلات بعيداً واندهش من استيلاء "نفرت" هذه على كل أفكاره برغم يقينه ان قاتلها سيظل مجهولاً.. ما الذى يجعل جثة "miss Egypt" خاصة إلى هذا الحد؟ ما الذى جعل عينيها المغلقتين تغلقان وإلى الأبد بصيرته؟ أهو الجزء المستأصل منها؟!..

كم أمسك بين يديه أكياساً بها بعض الأصابع أو بقية ذراع أو جزء من عضو ذكرى لم يسلق جيداً، فمنذ اخترعت قاتلة السويس الشهيرة طريقة تعبئة جثة زوجها فى أكياس بلاستيكية سوداء بعد تمزيقها إلى قطع صغيرة وتوزيعها على البؤر المركزية للقمامة فى أنحاء المحافظة وهو لا ينى يفتش فى الأكياس عن عيون جاحظة مفتوحة.. لطالما أمسك بين يديه بأعين مغلقة بماء النار أو البوتاس أو الأسمنت ولم تثر فيه إلا سؤال صاحبها: أما كنت تستطيع الفكاك من هذا المصير؟! ثم يضعها فى الكيس مرة أخرى ويواصل البحث عن أعين مفتوحة.. لم تؤثر فيه من قبل هكذا عينان مغلقتان.. تذكر أشجع عين مفتوحة قابلها كانت لزوج بدين مثله أسرت له بأن بدانته المفرطة منعته فى الآونة الأخيرة من مضاجعة زوجته الخادمة التى ظلت طوال سنوات تنفق عليه ثم سئمت من كل شىء فجأة فأخذ يسبها ويضربها، فخلطت له سم الفئران مع أكثر وجبة يحبها.. البولبيف بالبيض وقدمتها له وتركته يأكل بينما تستمتع هى بكل لقمة يبتلعها.. كم رأى من عيون! عيون خلدت قاتلها وكافحت لتظل مفتوحة برغم دفنها تحت الأرض أو وضعها فى فريزر ثلاجة أو رميها من علٍ أو حتى حرقها وعيون استسلمت من أول لحظة واحتضنت بحرص قاتلها وغلقت عليه أبوابها وإلى الأبد، تأفف من إغلاق طبيب أبيه لتليفونه المحمول ولكنه ظل يكرر المحاولة.

ترك أبوه "محمد العريان" الجيش في ١٩٨٥ كلواء متقاعد وتفرغ للتجارة في حديد التسليح،كل ما كان يمتلكه مجموعة من الأسرار العسكرية وفضائح شخصية لكبار المسئولين ، ومحطات مجهولة لم يتوقف عندها قطار تاريخ مصر الحديث.

شيد بملياراته مجهولة المصدر إمبراطورية مترامية الأطراف تشبه جسد "نسل شاه" ممتلئة بالجبال والمنحنيات والهضاب وصحارى شاسعة

وصامتة وأبواب مغلقة على صناديق مختومة بالشمع الأحمر، ظل لأكثر من عشرين عاماً ينهض كل يوم في ميعاده العسكري فجراً، جعلـه المـرض يتخلى عن كل شيء إلا امتثال جسده للصحو مبكراً، يزوم لـتغير لـه الممرضة البامبرز، يلوك شيئاً ما وهمياً بين فكيه، يتحسس صلعته الحمراء، ووجهه المنتفخ، يتناول عصائره وأدويته، وبنصف إغماضة يتـابع قنـاة الجزيرة، يختلط عليه الأمر فلا يفرق بين حرب التحرير العظمى والحرب العالمية الثانية، أو بين عاصفة الصحراء، ومشاهد اجتياح العراق، يخـال نفسه مشاركاً في أحدها فيتهته للممرضة.. أوقعت هذه الطائرة أمـس على أرض سيناء المقدسة، تلتقط الممرضة حروفه وتصفها في جمل بعـد تنقيتها من قباحة بعض الألفاظ، ولكنه يكررها بإلحاح.. وبعدين خوزقت الخمسة اللي فيها وبدأت بالطيار نفسه.. انت بتضحكي؟ مش مصدقاني، طيب اسألي الكتيبة بتاعتي يا جاهلة.. وروحي يا بنت يا ناشفة انت هات لي مهلبية.

وما ان يدخل عليه "تاج العريان" حتى ينهنه دونما دموع..

– صاحبك الوسخ نغزني بالسم في الحقنة.. خلاص ، ها موت يـا "تاج"

ويهمس بصوته المشروخ اقبض عليه يا "تاج" ده عدو الثـورة، قال لي بالحرف الواحد: باشاوات العهد البائد كانوا يشيدون المـدارس ويؤسسون الملاجيء للأيتام ويبنون المبرات و يرعون الفنـون الراقيـة ويتبرعون للمرضى، ويفتحون الجامعات، أما أنتم فماذا فعلتم يا "باشـا" سوى لكاح الراقصات وتسجيل أعضائكم التناسلية على السـيديهات؟ خلاص يا "تاج" أنا ها موت صاحبك أبو مناخير قتلني.

وانقبض وجهه وتكورت ملامحه وهو ينتحب بحرقة: كان نفسي أشوف "كمالة" قبل ماموت يابنى.

أغمض "تاج" عينيه وحاول أن يسيطر على صداع رهيب، أخرج تليفونه المحمول وطلب رقماً وانتظر طويلاً قبل أن يقول:

– ازيك يا ست "كمالة" والله واحشانا.

– الحمد لله، هو بخير، وعايز يشوفك، انت عارفة "الباشا" بيعزك قد إيه.

– لا..لا.. تاكسي إيه ؟ ها بعت لك السواق حالاً

ستأتي "كمالة" وسيشرق وجه "محمد العريان" سينهض جالساً، وسيحتضن كل منهما الآخر بحياد جسده وجسدها، وبرعشة عرق تحت جفنها الأيسر، وحركة خفيفة من حاجبه الأيمن. ستحكى له كل الأحلام التي لم تحكها له بعد والتي أغلبها عنه، وستومض عيناه، سيستمع إليها باهتمام واندهاش وقد يكرر السؤال الذي طرحه آلاف المرات:

– لماذا لا أحلم أنا على الإطلاق؟ هل لأنني رجل عسكري؟

وستمتعض "كمالة" وهى تصيح وكأنها تدرأ عنه رذيلة لا تغتفر، وهى تشيح بيدها المعروقة:

– لا يا "باشا" لا يا "اخويا" بتحلم طبعاً لكن الفرق بيني وبينك انى بافتكر أحلامي وانت بتنساها، امال إيه، أنا فاضية لكن انت..انت "باشا" ها تفتكر إيه ولا إيه؟؟!

سيبتسم راضياً وسيبذل جهداً مضنياً للامتناع عن حركة فمه التي تصاحبه وكأنه يلوك شيئاً ما وسيخجل من طول جلستها، خوفاً من

دخول الممرضة لتغيير "البامبرز" له أو المحلول أو لـــربط أو فـــك أحـــد الأجهزة اللعينة، ستدمع عيناه ولكنه برقة غير معهودة فيه ورجولة فرسان القرون الوسطى سيأمرها وهو يربت على ذراعها:

– ياللا ياكمالة.. اتكلي على الله – السواق ها يوصلك.

– خليني قاعدة معاك شوية يا "باشا".

سيفتح عينيه وسيملأهما من عينيها وطرحتها الحريريـــة الســـوداء وجلدها الذي تغضن تماماً ولكنه ظل كما كان ناعم الملمس.

– اسمعي الكلام.. علشان لما أعوز أشوفك أبعت لك تاني.

ستنحني عليه ويهفهف طرف طرحتها على وجهه، ستقبل جبهتـــه وصلعته الحمراء وسيغمض عينيه على قبلتيها وسيصيح بها قبل أن تصل إلى الباب:

– كمالة.. الواد " تاج" مخليكى عايزة حاجة.

تمصمص بشفتيها:

– "الباشا "الصغير ! ربنا يخليه ويخليك يا " باشا"

ربما كانت ""كمالة" هي المرأة الوحيدة التي لم يرها "محمد العريان" عارية، كانت خادمته لفترة زمنية، ثم أصبحت العلاقة بينـــهما شـــديدة التعقيد والوصف، فهو ينفق عليها طوال عمرها ويشترى لها شقة واسعة فى المهندسين، ويرسل لها من تخدمها، ويرسلها إلى الكعبة لتحج كل عام، ويكاد يقتل نفسه إذا قصر فرد من أفراد عائلته في تلبية احتياجاتها حـــتى صارت الحاجة "كمالة" وكأنها عمود من أعمدة عائلة "العريان" ادعى في البداية أنها قريبته من بعيد، ولكن تحريات زوجته أثبتت أنها لاتمـــت لـــه

بصلة قرابة، وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي تحاول فيها زوجة "الباشا" الاقتراب من تفسير علاقته الشائكة بهذه المرأة، عندما خيرها بين أن تتركه وشأنه أو يطلقها الآن إذا ما سألت سؤالاً واحداً يخص "كمالة".

ربما كانت "كمالة" هي المرأة الوحيدة التي أحبها "محمد العريان" في حياته، وربما كانت هي الوحيدة التي أحبته أيضاً، قالوا إنها رفضت كل من تقدموا للزواج منها وإنها رفضت وهى شابة فاتنة أن يمتلكها "محمد العريان" بكل الطرق التي اقترحها عليها.. زواج رسمي أو زواج عرفي أو حتى عشرة في الحرام.. أيامها أغلقت عليها الشقة التي اشتراها لها، وأصبحت زاهدة في الحياة نفسها وعندما ضاق من عدم فهمه لها، تسلل إلى شقتها، اطمأن أنها نائمة في غرفة نومها، فأخذ يفتش في كل ركن من أركان الشقة، عله يفهم شيئاً ،عندما استيقظت وجدته جالساً على الأرض في الصالة وأمامه كومة ذكرياتها.. شراب به عرق قدمه، صور له وهو على الجبهة ،وهو في النادي، وهو مع زوجته وأولاده، وهو علي البلاج مع حسناوات، منديل يتذكر أنه كان له في يوم من الأيام، قميصه القديم المزركش وفق موضة السبعينيات، قلمه الجاف الذي جف مداده، رباط حذائه البنى القديم، أعقاب سجائره ، ولاعة كان يمسكها فى يوم ما خاوية الغاز، خطاب مسروق من خزانة زوجته أرسله لها وهو على الجبهة، وعندما قرأه اكتشف لماذا سرقت "كمالة" هذا الخطاب بالذات لقد سأل فيه عن أخبارها ضمن من سأل عنهم وكانت تعمل في هذا الوقت خادمة عندهم، نظر كل منهما في عين الآخر طويلاً.. هطلت دموعها وهى تلملم أشياءها، كانت وكأنما عراها من ملابسها اختفت في المطبخ وهو لا يدرى ماذا يفعل معها، هذا نوع من محبة لم يستطع قط فهمها. فكر في أن يحرق ذكرياتها لعلها تعيش معه في الحاضر، ولكن ماذا

أدراه أنها لن تلم ذكريات جديدة.. يومها شرب القهوة التي أعدتها لـــه، وقالت بهدوء وهى تمسح عينيها وأنفها:

– يا باشا إذا كنت ها تدخل الشقة من غير ما ترن الجرس لأنهـــا شقتك فأنا هاسيبها بكره.

يومها بكى واستعطفها لكي تبقى وقال إنه يغير عليها وإنه ســـيجن إذا لم يتزوجها فهمست ببراءة:

– تغير على ! أنا مين يا باشا عشان تغير علي.

وأضافت بالبراءة نفسها وبمرارة من تحـــس بمصـــيبتها ولكنـــها لا تفهمها:

– ياريتنى أشوف رجل غيرك يا "باشا" كنت ارتحت وريحتك مـــن همي.

وكان عندما يصرخ:

– أنا باحبك.. اتجوزيني.

تنظر إليه بعينين حمراوين من البكاء وكفرخة غبية تنتظـــر الـــذبح تبرطم بأشياء ليس لها علاقة بكلامه من قبيل:

– ربنا يسترها معاك يارب. أو

– كتر خيرك يا باشا. أو

– يا رب أنا طالبة الستر لنفسي والهداية ليه يا رب.أو

– يا رب قويني بقى.

أو تتمتم بصوت طفلة صغيرة

– يعنى يا ناس أروح فين؟!

هل صامت "كمالة" طوال عمرها عن حبيبها حتى تستمتع الآن بكل آيات الاحترام في بيت "العريان" ستعرج الآن على "نسل شاه" وتهمس لها بأن تزيد الملح في خضار الباشا حتى تمتنع ريالته، وإذا ما اعترضت "نسل شاه" بأنها أوامر الأطباء ستنهرها قائلة:

– الأعمار بيد الله يا ابنتى و"الباشا" برده باشا وعيب يريل عشان أوامر الأطباء، يا ختى زودي الملح حبة بحبة، واتكلي على الله.

قالوا إن" محمد العريان" فشل طوال عمره في كشف سر محبة " كمالة"، ورفضها له زوجاً ، لم تحب سواه ولم تتمنّ رجلاً غيره وترفض كل شيء من مباهج الحياة إلا رؤيته، أخيرا اعتبرها "الباشا" مجرد حيوان محبوب أخرس، كان يغيب عنها سنة أو ستة أشهر أو أياما فيجدها في انتظاره، لا تطلب شيئاً ولا تتمنى شيئاً، تجلس أمام التليفزيون تتفرج على الأفلام المصرية وتبكى على مصير كل من أحب ولم ينل محبوبه، يكاد يصدق أنه لو لم يشتر لها ملابس لاستغنت عنها أو طعاما لكفت عن الأكل.

كانت "كمالة" نحيفة ذات بشرة رقيقة ناعمة وعينين كحيلتين ناعستين، وضفيرتين سمينتين طويلتين يندهش من يراهما ويتساءل.. كيف أنتج هذا الجسد الضئيل هذا الشعر الكثيف الناعم ؟

كمالة التي جلست طوال عمرها مع حفنة من آثاره المتعفنة ، نالت كل ما تمنت بعد أن فرغ جسدها وجسده من العنفوان فكانا يلتقيان وكأنهما روحان شفافتان برعدة في عروق يدها اليمنى وعلو في ارتفاع

دقات قلبه يؤهله للموت، ولا يقسم أحدهما إلا بحياة الآخر.

أغلقت "كمالة" الباب خلفها، فسقطت رأسه على صـــدره ، أراد "تاج" ان ينهض ولكنه سمعه ينهنه بصوت خافت "تاج" متأكد أنه يبكى لذهاب "كمالة" ولكنه قال بصوته المشروخ:

– أنت ما قبضتش على صاحبك الخائن يا " تاج"؟ يعنى ها تســيبه يموتني كده؟

جلس "تاج" مرة أخرى وطلب الدكتور" عبد الرحمن":

– أنت مزعل "الباشا" ليه يا دكتور.. من فضلك بلاش الزيارة دي ده قرب يتجنن،

– يا أخي وتكلمه في السياسة ليه؟

– ياأخي بيقول انك كلمته عن الثورة ،

تقطع صوت "محمد العريان" المشروخ وهو يصرخ في وجه "تاج":

– أنا يا ولد قلت لك روح ذاكــر.. انــت تعــرف إيــه عــن الثورة..هه؟! قول لمراتك تحميك وانت وسخ كده على طول.

أغلق "تاج" تليفونه برغم تأكده من أن "عبد الرحمن" اســتمع إلى صراخ أبيه.. دعا الممرضة لتجلس معه، وهو يسب نفسه الــتي قــررت مراراً ألا تدخل على أبيه وأن تعتبره ميتاً.

امنح نفسك لصاحب حلم كبير في محبتك وجـــرب أن يبتلعـــك تماماً..فحتى لو قذفك مجرد جثة فحسبك أنك رأيت ما لا عين رأت.

عارف تاج

(٤)

دون مقدمات سوى الحوار السريع الذي دار بينه وبين أبيه عنـــها، ظلت "نفرت جاد" تطارد "عارف تاج" طوال الليلة الأولى لمقتلها، فوجد نفسه بعد سهاد طويل يقفز في سيارته وينطلـــق للبحـــث عـــن "عمـــر الجوهري" ولم لا؟! لقد ألح عليه "عمر" كثيرا طلبا لوده وصداقته بالطبع حتى يتقرب من "تاج العريان"، فلم لا يلجأ إليه الآن ويستغله؟.

استقبله "عمر الجوهري" على الباب وقد ظهر الهم علـــى ملامـــح وجهه، يبدو أنه لم ينم ليلته أيضا، لكنه حياه بحرارة وقـــبلات وصـــوت متهدج:

– عارف بيه شخصياً !

لـــ"عمر" رائحة هي خليط من الصابون الفاخر وبارفان "وان مان شو". فإذا ما عانقته فكأنك عانقت صابونة أو زجاجة.

– لا اسمع يا "عمر"، والنبي بلاش بيه دي، انا باكره "بيه" و"باشا" وكل الحاجات الغريبة بتاعتكم دي، قول لي يا "عارف" وانا أقول لـــك يا"عمر".

– اتفقنا و"الباشا" بخير؟

– "عمر" أنا جايلك فى خدمة كبيرة قوى ، بابا قال لي إن قضية " مس إيجيبت" معاك أنا عايز أشوف صور" نفرت جاد" ، انت عارف صورها في الجرائد النهارده مش واضحة.

فتح " عمر الجوهري" فاه بغباء وتساءل:

– أنت كنت بتعرفها؟

ضحك "عارف"

– اعرفها إيه يا جدع.. انت هاتوديني في داهية، أنا نفسي يطلع من الحدوتة دي كلها فكرة فيلم يكسر الدنيا.

عادت ملامح "عمر الجوهري" إلى مكانها وابتسم ببلاهة

– آه.. ماهو فيلمك الأول كسر الدنيا.

المهم ها تساعدنى.. هه، وطبعاً من غير ما "الباشا" يعرف.

"نفرت جاد" همس "عارف" برعب من وجد أمامه ميتاً دفنه بيديه أو من شاهد وجهاً لأول مرة في حلمه ليلاً فقابله على الباب صباحاً... شعر غجري أسود كثيف وطويل ومتموج موجة خفيفة كما لو كانت على نهر هادىء، حاجبان أسودان وكأنهما مرسومان رسماً فوق عينين لوزيتين واسعتين تظللهما أهداب طويلة، ما إن تتطلع إليها حتى يهيأ إليك أنها لن تنتهي، أنف تتوارى بخجل فتحتاه الصغيرتان لعلمهما أنهما شهوانيتان، أسنان مصفوفة بعناية ومصقولة بضوء أبيض خاص جداً وآسر، شفاه غليظة بلطف.. عنق طويل ممتليء يجعل الوجه مائلا للاستدارة. ولكن تلك النظرة!! تلك النظرة في العينين والتي تكررت في

كل الصور حتى التي اتخذت لها وهى تضحك وتلهو مع زملائها أو فوق حصان أو "بروفيل" أو وهى تلعب التنس بشورت أبيض قصير و"تى شيرت" عاري الأكتاف.. تلك النظرة.. كيف يتم وصفها؟ كيف؟

ظن في البداية أن الأمر سينتهي عندما يرى صورة واضحة لها في مكتب "عمر الجوهري" ظن أنه سيخرج من عنده وهو يشعر بأنها كانت فكرة سخيفة، ولن يخرج منها شيء ذو قيمة، فالقصة تقليدية، فتاة قتلت مثل عشرات الفتيات اللاتي يقتلن كل يوم، فما المثير هنا حتى لو كانت القتيلة هي المرشحة لتكون ملكة جمال الكون؟

جدران غرفته مغطاة تماماً بـ "البوسترات"، وجه "فلليني" المخرج الإيطالي، كادر من فيلم "دعاء الكروان" لفاتن حمامة وزهرة العلا بوجهيهما الملائكيين وملابسهما السوداء، "نيكولاس كيدج" في عباءة ملاك سوداء وهو يطير حباً فوق "مدينة الملائكة"، "بوستر" كبير لـ"سعاد حسنى" وهى دامعة العينين خلف ستارة شفافة في آخر كادر من فيلم "غروب وشروق"، مجموعة من الخيول عليها فرسان يتقدمهم "أحمد مظهر" من فيلم "صلاح الدين الأيوبى" وإلى جواره "بوستر" لـ"يوسف شاهين" وفى فمه سيجارة ومن عينيه تكاد تقفز ملايين المشاهد..يبحلق "عارف" في الصور وهو يفكر بأن عليه أن يجد مكاناً يعلق فيه بوستراً كبيراً لـ"نفرت جاد" أغمض عينيه على صورتها.. فتاة في الثامنة عشرة استطاعت أن تجيد لغتين، وركوب الخيل، وتكون بطلة تنس، وقارئة نهمة، وفى الوقت نفسه هي ابنة داعرة، قضت طفولتها وهى تلعب على أرض كوافير ربما شاهدت فيه إبرام صفقات بيع اللحم الأنثوي بما فيه لحم أمها شخصياً، بل ربما تكون قد شاهدت كادرات لأمها وهى تمارس مهنتها.

فكر "عارف" بجدية تامة.. كيف سيسرق صورة لها من "عمر الجوهري" ليكبرها ويعمل لها "بوستراً" يملأ على الأقل نصف جدار من جدران غرفته.

لم يعد "عارف تاج" يدرى منذ متى أصبحت تجثم عليه "نفرت جاد"؟ ينام عادة على ظهره وذراعاه معقودتان على بطنه وأحياناً على صدره، يصحو ليلاً فيجد ذراعيه إلى جواره وهى راقدة تتطلع إليه بعينيها اللوزيتين وأهدابها الطويلة.. يفزع من نومه عندما يجد أمام السرير ستارة سوداء سميكة معلقة في الفراغ. يضيء الأباجورة ، ودونما صراخ يشرب جرعة ماء، ويظل يدخن وهو في فراشه مستعيداً كابوسه لحظة لحظة، يغلق أزرار بيجامته، إذ أنها تحب أن تلقى برأسها على صدره العاري.. لا يشبه ما يعيشه معها شيء، لا كابوس، ولا حلم، ولا فيلم سينمائي شاهده منذ زمن ويحاول تذكره، ولا ذكريات... إنه كما لو كان يتجسس على عاشقين من خلال ثقب باب، ثم تستقر عيناه فجأة على وجه العاشق فيكتشف أنه وجهه هو.

تغيرت عاداته كثيراً، صار يغلق باب غرفته بالمفتاح كل ليلة، يجرى مواعيده الصباحية بشيء من الفتور، يعتذر لجميع أصدقائه عن المشاركة فى حفلاتهم ولهوهم أو حتى مجالس الاتفاق على أعمال جديدة.

وضع يده على جرس عيادة الدكتور "عبد الرحمن" ولم يرفعها، سيارته أمام باب العمارة ولكنه لا يفتح، طلب رقمه عدة مرات دونما إجابة..أرسل له أخيراً رسالة من محموله... أحتاج إليك بشدة. أنا لا أنام، وإجابتك عن سؤال واحد ستساعدني، كنت هنا في الثامنة صباحاً.. كلمني.

يداهمه حزن لم يذق طعمه طوال حياته، يشعر بأنه كبر فجأة عشرات السنين، يدهس جسده كل ليلة جسد فتاة قتيلة لا يستطيع الإحساس بالرعب من نظراتها بل إنه يستمتع بثقل جسدها ويكاد يؤلمه صدره، إذ انها تحب أن تنظر في عينيه وهى مستندة بكوعها إلي صدره، ساقاها بين ساقيه وشعرها هائج حول وجهها ووجهه، يحتضنها بيأس من يعرف أنها ستموت الآن أو أنها ميتة بالفعل، يخمش عريها كله كغريق استيقظ فجأة في قاع بحر، ويكاد يجن ليقينه أن من عمدته رجلاً حقيقياً هي في الحقيقة مجرد فتاة مقتولة.

ما زالت التاسعة صباحاً، يوم خريفي ربما كان هو اليوم الوحيد في طقس مصر الذي يحمل ملامح الخريف، مازال أمام الليل الكثير ليغمض عينيه ويدوس على صدره صدرها الناعم الوفير من جديد، توقف عند كشك جرائد، اشترى كل الجرائد والمجلات وجلس في سيارته يتتبع أخبارها التي يحفظها عن ظهر قلب والتي يحصل عليها أولاً بأول من "عمر الجوهري" تم اختصار مسار الجديد فى التحقيقات فى بضعة أسطر في صفحة الحوادث، بينما تخلى الكثير من المجلات والجرائد عن الإشارة إلى الجريمة من بعيد أو قريب – أحس بالخيانة – لقد مرعلى مقتلها خمسة أيام فقط. أحس أن البلد كلها تتخلى عن القصاص لملكة جمالها، قطع خبرا صغيرا من مجلة تعيسة ضعيفة التوزيع، كان الخبر في صفحة بها تحليل سياسي كبير عن الوضع في أفغانستان.. الخبر تعلوه صورة لمجموعة من الجميلات يرتدين البكينى الأسود الساخن وقد كتب هكذا... في مستوطنة إسرائيلية في الضفة الغربية تعرضت المتسابقات الإسرائيليات لاختيار ملكة الجمال إلى هجوم عنيف من قبل المستوطنين اليهود المتشددين دينياً، واعتدوا عليهن، باعتبار أن هذه المسابقة منافية للدين والشرائع اليهودية.

اجتاز ميدان لبنان بالمهندسين فاقداً الأمل في رد من الدكتور "عبدالرحمن" صعد محور ٢٦ يوليو متوجهاً إلى "عمر الجوهري" بالهرم.

أراد أن يسأل الدكتور "عبد الرحمن" عما يحدث له، إن كابوسه يتطور يوماً بعد يوم، ظل يتساءل.. مالي أراها إذا نظرت خلفها تفزع وتضغط رأسها في صدري أكثر؟! احتضنها بشدة بينما أظل اتطلع إلى ستارة سوداء سميكة

معلقة في الهواء.

جلس على كرسي خارج مكتب "عمر الجوهري" ينتظر أن يسمح له بمقابلته وكان "عمر الجوهري" غارقاً مثله تماماً في زئبق أيام "نفرت جاد" اكتشف من خلال تحرياته أن مصر بها جزيرة فوق السحاب مكونة من أبناء كبار رجال الأعمال والسلاح والمخدرات والدعارة والسياسة والفن والسياحة ، أخذوا أموال ذويهم وانطلقوا يركبون مالا يركبه البشر ويأكلون مالا يأكله البشر ويعيشون في قصور مصفحة معزولة تماماً عن بيوت الناس، يعلقون أسرهم فوق قمم جبال البحر الأحمر أو يؤسسون قلاعاً على الشواطىء المهجورة، يشترون رجالا فقراء من صالات "كمال الأجسام" ويتبادلونهم فيما بينهم كالعبيد تحت اسم "بودى جارد"، يتباهون بإمكانيات هؤلاء البلطجية وما يتقنون من فنون التشويه بماء النار أو تزويق جسد خصمهم بمطاوي قرن غزال أو القتل من أول رصاصة..

– وفين يا زميل ؟ في قضيبه وحياتك

– طيب ما أنا الولد بتاعى كسر ظهرها.. بصراحة واد أسطورة، خلاها لا تنفع ترقص ولا تمثل ولا تغنى ولا حتى تتاكل.

خرج "عمر الجوهري" من تحقيقاته خاوي اليدين،

أنكر معارف "نفرت جاد" أنها صديقتهم "الأنتيم" وادعوا أنهم شاهدوها في مناسبات عامة برغم وجود أرقام تليفوناتهم جميعاً على تليفونها المحمول.. نحاهم "عمر الجوهري" على كل حال من دائرة شكوكه، فلقد تأكد أنهم جميعاً كانوا ينصبون خيامهم مع حراسهم فى سفارى الغردقة ويعربدون هناك وقت ارتكاب الجريمة، حصر شكوكه في الكوافير وما يمت له بصلة وفى النادي وفى علاقاتها المتعددة والمتشابكة بالراعي الرسمي لمسابقة miss Egypt وأصدقائه وعائلته وشركته "تى" للتجميل ومصنعه في ٦ أكتوبر.

زاغت عيناه على تقرير الطبيب الشرعي، وأخذت تقفز فوق السطور...

"تقرير طبي شرعي" في القضية ٢٩٩٧٢ جنايات الجيزة – الشهيرة بقضية miss Egypt

– بتشريح الجثة وجدنا أن "نفرت جاد" عذراء لم يمسسها رجل، ولم تغتصب قبل مقتلها.

– تقبع في جمجمتها رصاصة من مسدس٩ مم / كاتم للصوت

– وجدنا حرقاً فوق ثديها الأيمن ، وتشوها للحلمة من تأثير مكواة شعر ساخنة وكذلك ثديها الأيسر

– ينقص الجثة جزء من عضوها التناسلي ، هو شفرا العضو وقد تم استئصالهما بموسى حادة بعد موتها.

– وجدنا حروقا وتشويها واضحا في مدخل المهبل جراء مكواة

شعر ساخنة ولا شك لدرجة الاحمرار.

– تم حرقها وتعذيبها بهذا الشكل وفى هذه الأماكن بعد موتها، حيث أنها ماتت بعد دقيقة تقريبا من إطلاق رصاصة محترفة على رأسها.

– تم التحفظ على ثلاث مكواة شعر ملوثة بجلد وجزء من لحم المجني عليها من الأماكن السابق ذكرها.

حاول "عمر الجوهري" أن يضع أفكاره إلى جوار بعضها البعض ليتأملها ولكنها أخذت تصطدم ببعضها البعض وكأنها بالونات العيد المعلقة على عصا يمسك بها بائع مخبول.. تمنى أن يدخل عليه "تاج العريان" ويقدم له بكل ثقة وصلافة وغرور قاتلها ، وليسبه حينئذ ولينعته كما يحب بالغباء

دخل عليه "عارف تاج" فوجده سابحاً في ملكوت يقترب من ملكوته، ممتقع الوجه، حائراً.. يهيأ لمن يراه أنه قد يكون هو قاتلها.

قابله ببرود،أجاب عن أسئلته باقتضاب وصوت خافت، ولكن فجأة وفي أثناء كلام "عمر الجوهري" خبط "عارف تاج" جبهته وخرج مهرولاً وهو يغلق رنين هاتفه على اسم الدكتور "عبد الرحمن"

نزل سلالم مبنى المباحث قافزاً،أدار سيارته وأغلق زجاج النافذة بعد فتحه وانطلق وهو يصرخ صراخاً مروعاً... انحرف إلى طريق الفيوم السريع. ركن السيارة على حافة الأسفلت وخرج منها ببطء رجل في السبعين، ركع على الرمل الدافيء.. أمامه الأهرامات الثلاثة وفوقه الشمس عمودية وحانية وفى كفه قبضة رمل يعتصرها بكل قوة روحه المضطربة.

حكى له "عمر الجوهري" بصوت محايد أن القاتل أغلق باب

الكوافير من الداخل وأخرج اللافتة المكتوب عليها "مغلق" كان متأكداً أنها وحدها في الطابق العلوي، صعد السلالم وربما رفع عباءته حتى لا يتعثر فيها، دخل عليها بهدوء بينما ينطلق من المسجلة صوت "ماجدة الرومي" وهي تغني:

يسمعني حين يراقصني

كلمات ليست كالكلمات

كانت مسترخية على الأريكة تستمع إلى الأغنية.. ربما كانت تتأمل نفسها بين ذراعي من تحب ، بينما تنتظر "نهلة" خادمتها، لتغلقا الباب وتناما.

ربما اندهشت قليلاً لوجود امرأة منتقبة معها في تلك الساعة.. ربما أخبرتها أن الكوافير مغلق.. لم يستغرق الأمر ثواني، أخرج فيها القاتل مسدساً من عباءته وأطلق عليها رصاصة صائبة. ثم مددها على الأرض، فتح الغاز وسخن ببرود ثلاث مكواة شعر مختلفة الألوان، وأخذ يجردها من ملابسها وهو ينتظر احمرار الحديد على النار.

ظل "عارف تاج" ملقى على الرمل يفكر... أين كان في الساعة العاشرة مساء يوم الاثنين الذي قتلت فيه "نفرت جاد".

هل كانت حياته قبل أن يحبها مزدحمة إلى هذا الحد؟ إنه يتذكر موعده مع "ميرنا" الذي انتهى في الثامنة.. فماذا فعل بعد ذلك؟ لا يتذكر.. هل يرد الآن على الدكتور "عبد الرحمن" الذي يطلبه منذ ساعة بالحاح؟ هل يحكي له عن كابوسه المتكرر المتطور المتصاعد إلى ما لانهاية؟ هل يقول له إن ذاكرته مثل إناء مثقوب وقع منه مساء يوم الإثنين ذلك بكل تفاصيله؟ وماذا لو لم يكن كابوساً؟ هل يسأل أمه وأصدقاءه أين

كان؟ هل يعطى للجميع فرصة الشك فيه؟ أين تعرف على "نفرت جاد"؟ ولماذا يقتلها؟ وإذا كان قد قتلها فلماذا ترقد فوقه بكل هـذا العشـق؟ وتنظر بكل هذا الفزع إلى الستارة السوداء المعلقة، والتي اتضح له اليوم أنها لم تكن إلا القاتل نفسه. لا. لم يعرفها إلا من صورها بعد موتها وليس قاتلا فهي تلوذ بصدره. ولكن أين كان؟ أين؟ نام تحت سماء غائمة، فوجد نفسه في مقبرة مغلقة تحلق فوقه طيور سوداء كـثيرة مجهولـة النـوع، يكتشف أنه حي فيصرخ صراخاً متصلاً. ينظر حوله فإذا بـ "نفـرت جاد" تأخذه من يده وتجلسه على حجر أمام بحر هائج وتجلس على ركبتيه تنظر طويلاً في عينيه بعينيها اللوزتين فيهرب من عينيها، ينظـر إلى بحـر يحيط بهما وكأنهما في جزيرة، ثم إن "نفرت جـاد" أخذتـه إلى غرفتـها وتركت يده، فتحت خزانة ملابسها، ظلت ترتدي ملابس غريبة بسرعة كبيرة وكأنها سرعة إسقاط كادرات في تيتر فيلم سينمائي، ثم إنها أخذته من يده وألقته على حافة بحيرة ممتلئة بأزهار اللوتس، يتقافز منها سمـك مختلف ألوانه ثم يعود للسباحة، نظر خلفه فوجد أن كل المنازل مبنية من جذوع النخيل والغاب. تساءل.. أين هو؟

بينما كانت هي تقف على الماء وسط أغصان البردي وقد ارتـدت هذه المرة فستانا أبيض خفيفاً يشف عن أعضـائها الفاتنـة، ومزخرفـا بأغصان ذهبية وأوراق اللوتس، ذراعاها العاريتان ممتلئتان بأساور علـى شكل ثعابين تلتف حتى مفصل كتفها، ساقان مزدانتان بخلاخيـل تلمـع تحت فستانها المشقوق من الأمام، من أعلى فخذها وحتى قدميها، طرفـا عينيها مصطبغان بلون سماوي ضيقتهما وهي تنظر إليه وتبتسم وتـدعوه بإصبعها، فيلقى بنفسه في البحيرة... فزع على لكزة في كتفيه: يا كابتن.

تمتم وهو يفتح عينيه وكأنه يقرأ في كتاب

– نعم أنت جميلة.. أنت مليكة جميلة.. فيا أيتها الجميلة لماذا لا تدليني على قاتلك كما اعتدنا في القصص القديمة؟

ابتسم في وجه رجلين وقفا فوق رأسه، وبقفزة واحدة كان واقفاً معهما، تثاءب وهو يقول:

– مش عارف نمت هنا إزاى ؟

– ياأخى حرام عليك.. ده احنا افتكرناك من بعيد ،لا سمح الله– ميت.

شكرهما وركبا سيارتهما نصف النقل ، وركب سيارته وهو يلوح لهما ويصفر بشفتيه في وجه الشمس الغاربة، وكأنه حصل لتوه على موعد غرامي من فتاة ظل يحبها سنوات طويلة دونما أمل.

ونحن نتدثر بوهم امتلاك اليقين ونحاول الصعود إلى ما لسنا ندرى

عبد الرحمن الكاشف

(٥)

استغرق "تاج العريان" وقتاً طويلاً ليترك كرسيه حتى كاد "عبدالرحمن" أن يطرده من عيادته، ظل يتأمل باحتقار روشتة العلاج التي كتبها له ويشك أنها ستعيد إليه رجولته المسلوبة لاضطرابه النفسي كما يدعى صديقه.

– يعنى إيه يا تاج.. انت ماعندكش شغل!

– انت عارف.. أنا خلاص باتفق على تقديم استقالتى

مسح بعينيه جدران حجرة الكشف في عيادة صديقه... دببة قطنية ملونة متناثرة على الأرفف أمام الكتب ، لاشك أنها هدايا من نسائه المتعددات، تحف من جميع أنحاء البلاد التي زارها، أضخمها سوفنير زجاجي لتمثال الحرية.. غريب أمر هذا الرجل! فكر "تاج" وهو يعيد تأمل أشياءه. لطالما دخل عليه فوجده منكفئا على أوراقه أو كتبه أو أبحاثه وكأنه في عالم آخر، وأحياناً كان يدخل عليه فيجده يودع واحدة من نسائه وهو يطردها ويقذف حقيبتها في وجهها هكذا بكل بساطة. لم يفهمه "تاج" أبداً.. هل هو عدمي كما قال له ابنه "عارف" مرة ضاحكاً:

– يا بابا لا تتعب نفسك مع عمى "عبدالرحمن" الدكتور انسان

عدمي.. أقرأ عن الشخصية العدمية وانت تفهمه.

يومها خجل "تاج" أن يسأل ابنه:

– إذا كان عدميا، فلماذا يعمل كما لو كان راهباً في معبد؟!

لم يفهمه "تاج" أبداً، ولكنه واقع في أسره كما لو كان إحدى نسائه، أزعجته الفكرة الجديدة التي توصل إليها في علاقته بصديقه، وأزعجه رنين تليفونه المحمول.

ظل "عبدالرحمن" ينظر إلى شاشة تليفونه ولا يرد، وعندما عاد رنينه تجهم وجهه فجأة وعكس كراهية مرعبة فأمسك به وأجاب بصوت صارم:

– أيوه !

– عندك أسئلة تانية غير إزيك؟!

– وغير ها تعمل إيه النهاردة؟

– وغير هاأشوفك إمتى؟، ولا أقول لك حلو السؤال ده ، مش هاتشوفيني تاني...

– علشان دي رغبتي أو أقول لك علشان أنا بعت السرير.

ثم صمت لأكثر من دقيقة يستمع وملامح وجهه تلتوي التواءات ازدراء وتهكم ونفاد صبر ، ويكاد "تاج العريان" الذي تسمر أكثر على كرسيه أن يتحول إلى أذن كبيرة حتى يستمع إلى ما تقوله المرأة على الجانب الآخر.

– أكيد انت عارفه السبب، ومع ذلك ممكن أغششك بشرط ما تتصليش بي تاني! السبب اني استمتعت بيك خلاص، بقيت مملة بالنسبة

لي.. مش عايزك.. أقول كمان؟!

ثم صرخ فجأة كأنه هو من يتألم:

- كفاية بقى الكلام اللي اتسمع في مئات الأفلام ده، إنت عايزة ترجعيني خمسين سنة ورا.. واحد بيقول لك أنا حقير ودنيء، تقولي له بس أنا باحبك.. إنت إيه؟ غبية.. وضع يده على رأسه واستمع هذه المرة لأكثر من دقيقتين ثم قال بصوت هادىء وحزين ومهزوم وحلو:

- تعملي إيه؟ تعملي إيه؟ ده سؤال لازم تردى عليه انت، ومع ذلك سأحاول أن أساعدك.. انسيني خالص.. اعرفي رجل تاني.. اتجوزى.. أقول كمان.

وكادت تطفر الدموع من صوته الآسر وهو يردد بصوت خافت وكأنما لنفسه:

- تعرفين لا يوجد شيء أبدى على الإطلاق.. لسه وحدك العابرة، كلنا عابرون.. الشيء الوحيد الأبدي هو الأيدي هو الأيدية نفيها..

ثم قهقه بصوت ساخر وعال، وانتفض واقفاً مثل الهمبانزى وهو يجز على أسنانه:

- تنتحري.. تروحي فى ستين داهية.. بس ما أشوفش وشك ولا أسمع صوتك تاني. انت فاهمة؟

أغلق تليفونه ، ألقاه على الأرض ، وانهار هو على الشيزلونج مغمضاً عينيه، بينما زحف "تاج" وهو مازال فاغراً فاه، أخذ التليفون، سجل على محموله آخر رقم اتصل به "عبدالرحمن" تحت اسم A MAZEN. فتح "عبد الرحمن" عينيه على صوت تكات التليفون، وقال بصوت خافت وكأنه خارج من مرض طويل:

– يا "تاج" ألف باء حضارة ألا تقحم نفسك في حياتي الخاصة، لا تتدخل فيما لا يعنيك يا "تاج" انت كده حرامى سرقت رقم من تليفوني الشخصي ، وأرجوك احذفه.

– حضارة إيه؟ عندك أخلاق قوى عارف الحرام.. هه ؟ إنت إيه؟ فيه واحدة ها تنتحر عشانك يا حيوان.

– ماحدش بينتحر عشان حد يا "تاج" اللي بينتحر يبقى في كل الحالات ها ينتحر.

– يخرب بيتك، ده انت عايز دكتور نفساني.

– أنا عايز متين سنة على الأقل علشان انتهى من مشروع وجودي، من تأليف كتاب واحد، وجايز أموت بعد سنة أو بعد يوم وهى بتكلمنى عن حب أبدى.. أبدى؟! إنت عارف إحنا إيه من الأبد ده يا "تاج" مجرد غمضة عين، وراءنا ملايين السنين وأمامنا ملايين السنين.

– يا حيوان.. فيه واحدة ها تنتحر، وانت هادىء ومغمض عينك وقاعد تتفلسف.

ضحك "عبد الرحمن" بمرارة وتمعن في وجه "تاج" ثم قهقه مرة أخرى وقال بالهدوء نفسه:

– انت مجرد عسكري غبي يا "تاج"، انت شبهها بالضبط، شايف مكانك في الطابور بس.. اطمن يا "تاج" مش ها تنتحر.

وأضاف بمرارة أكثر وكأنه يحدث نفسه:

– ستمنعها محبتها، سيمنحها الأمل الرغبة في البقاء، والاتصال بالتليفون وطرق بابي من جديد، أمثالي هم من ينتحرون.. هؤلاء الذين

بلا حائط ولا أمل ولا قدرة على المحبة ولا إيمان بـ من أين جاءوا وإلى أين هم ذاهبون.

رن التليفون من جديد، فنهض ببطء، ونظر إلى شاشته، وإلى وجه "تاج" الذى احمر من الغضب ، وقبل أن يرد بصوت مرح همس لـ"تاج":

– سأرد المرة دي عشان خاطر عيونك يا " تاج"

– ازيك يا أمل دلوقتى ؟،

– والله أنا باحسدك يا أمل، عندك قدرة على البكاء في أي وقت، ممتع البكاء مش كده؟ لقد أكد أحد العلماء الأمريكيين مؤخراً أن البكاء يطيل عمر المرأة ويفسر العالم هذا بأن الدموع تحتوى على نسبة من السموم التى تخرج من الجسم عن طريق البكاء مما يؤدى إلى خلو الجسم منها وطبعاً بما أن المرأة لديها الاستعداد الفطرى للبكاء أكثر من الرجل ، فأنها تعيش أطول منه.

ثم التفت إلى "تاج" الذي أحمر وجهه أكثر من الخجل والدهشة وقال وكأنه يعاتب طفله:

– انت لسه ماعندكش شغل يا "تاج"؟

– لا كملي يا "أمل".. أنا باسمع كلامك الفارغ أهو

– ده صديقي كان قلقان عليكِ جداً.

ثم تمعن في وجه "تاج" بفتور وهو يهتف:

– عايز تسمع حاجة تانى يا "تاج"؟ أنا والله ممكن أقول لها أى حاجة وأعمل فيها كل حاجة قدامك.

نهض "تاج" وأغلق الباب على قهقهات "عبد الرحمن" وهو يتمنى من كل قلبه أن يستطيع خنق هذا الرجل في يوم من الأيام.

لن تتحقق أمنيته تلك أبداً، فمنذ تاريخ ذلك اليوم وبالضبط بعد خمس سنوات وثلاثة أشهر ستتصل جارة الدكتور "عبد الرحمن عبدالرحيم الكاشف" وسيفهم بعد أن يعيد حرفي شينها وثائها إلى السين.. أن العيادة تنبعث منها رائحة كريهة، وأن تليفون الدكتور المحمول مغلق وتليفونه الأرضي لا يرد، وأنها أبلغت البوليس ويبدو أنهم يتباطئون فى تصديقها، وأنها بحثت عن رقم محموله هذا كثيراً عندما طلب منها الدكتور منذ سنة إذ كان مسافراً إلى أمريكا فى إجازته السنوية أن تلجأ في حالة حدوث شيء لشقته – أثناء غيابه – إلى قريبه الوحيد اللواء " تاج العريان" أغلق فى وجهها التليفون وقفز إلى سيارته، ثرثرت كثيراً في انتظار ان يشكرها وهو يصعد ببطء درجتين بعد خروجه من المصعد إلى باب العيادة، كسر البوليس الباب واحتشد رجاله مكممين أفواههم وأنوفهم، صرخ في وجوههم وهم يحاولون فهم معرفة من هو؟

وصرخ في وجه المرأة العجوز لتخرس فتجمد على لسانها سؤال عن مدى قرابته للدكتور.

دخل وهو يربط حزام روبه بإحكام على بيجامة لم يتذكر أنه خرج بها إلا الآن، أتاح له لسانه الطويل وحضوره المسيطر الآمر الذي كونه في سنوات خدمته الطويلة.. أن يكون داخل الشقة بالقرب تماماً من الحمام، تمعن في وجه ملازم يضع يده اليمنى على كمامته واليسرى على بطنه ويجر قدميه جراً حتى يواصل دخول الشقة، ويتمتم بصوت غائم

– اخرج بره لو سمحت

ببطء وصوت جهوري لا تحجبه كمامة.. فهره "تاج":

– بس يا روح أمك

دخل الحمام بجثته الضخمة وآلام ساقيه التي لا تطاق ووقف على بابه المفتوح، كان هو أول من رأى جثته كما تمنى وهو يصرخ في ظهر سائقه أن يسرع.. رائحة ثقيلة تجعل العين غائمة، كل الرجال في الخارج، مذهولين يتساءلون.. دون شك – كيف يحتملها هو؟ سمع ضجة فتح نوافذ العيادة في الخارج. تمتم وهو مفتوح العينين والفم والأنف:

– حرمتني أيها الحيوان الغبي من احتضانك في هذه اللحظة.

ظل يردد

– مبسوط يا "عبد الرحمن"

أجهش بالبكاء وهو متسمر أمام جثة صديقه، أخذت تهاجمه أفكار غريبة ليس هذا وقتها، مثل أن المرء عندما يعيش وحيداً فهو بالضرورة لا يغلق عليه باب الحمام، أو أن الإنسان ربما اخترع الزواج والأسرة حتى يجد من يدفنه في التو واللحظة بعد موته، خيل إليه أن الدكتور "عبدالرحمن" يبتسم في وجهه ساخراً ولكنه تأكد أنها حركة طفيفة من الدود وبعض الحشرات التي أخذت تسرح فوق وجهه وتخرج من أنفه وشفتيه، كان منفوخاً ومشوهاً تماماً ومن الصعب رؤية ما إذا كانت عيناه مغلقتين أم كانتا مفتوحتين، شورته البرتقالي ملقى على قدميه، وساقاه عاريتان ومتورمتان ولا شيء واضحا فيه أكثر من كلمات مطبوعة بالبرتقالي على الـ"التي شيرت" الأبيض الذي يرتديه، ظلت تبحلق فيه:

"look at me"

كان جالساً صامداً على قاعدة الحمام كتمثال متقن الصنع لم يـــرد بعد في رأس نحات.

لم يستطع "تاج" السيطرة على صوت نشيجه، ولا يدرى لماذا كان حانقاً عليه إلى هذه الدرجة كابن عاق لم يتح له الفرصة كي يحتضـــنه أو يترك له مكاناً يصفعه عليه، فجأة هبت علي أنفه تلك الرائحـــة العفنـــة ووجدها الآن فقط كريهة وكأن "عبدالرحمن" يطرده من حضرته للمـــرة الأخيرة. استدار يعدو بجثته الضخمة، تاركاً نفسه للمرأة العجوز تغلـــق عليه شقتها وتتركه يغسل وجهه ورأسه وتعطره بماء كولونيا رخيص وهى مازالت تثرثر، وهو مازال يطرد أفكاراً ظلت تهاجمه بلا ترتيب ولم تتوقف إلا عندما شم فيها شماتة في صديقه الوحيد الذي مات بطريقة لم ترد حتى في صلوات النساء اللائي حرق قلوبهن بابتعاده وتعاليه عليهن والهـــروب منهن، كان تاج يهز رأسه بيقين والجارة العجوز تتـــابع ثرثرتهـــا وهـــو يتساءل.. ألم تستطع واحدة منهن مسامحته تماماً بدرجة يتفادى بها الموت في أثناء قضاء حاجته؟

أشاح بيده لسائقه ليعود إلى البيت وحده، ووقف هو أمام العمارة ليعطيه انطباعا بأنه سيصعد مرة أخرى إلى العيادة، نظر إلى التقاطعـــات الثلاثة أمامه، وقرر أن يتوه في شوارع المهندسين حتى تكل قدماه فيستقل تاكسيا ويعود إلى بيته.

لقد أراد أن يسر له – اليوم بالذات – بإحســـاس دائـــم بـــالموت يقترب منه، أراد أن يحدثه عن شبح "نفرت جاد" وانتهاء حياته المهنيـــة أمام أنفها الجميل وعينيها المغلقتين، أراد أن يتمـــدد علـــى الشـــيزلونج ويصرخ معترفاً له:

– أنا أقرأ أعين الجثث المفتوحة.. أنا أرى الجريمة كاملـــة في بؤبـــؤ

العين حتى ولو استمر تنفيذها ساعات.

أراد أن يشكو له من أن تلك العيون تطارده الآن منذ أعمت عينا "نفرت جاد" المغلقتان وإلى الأبد بصيرته.... عيون تفقس في مخدعه كل يوم عشرات الحكايات، وتأخذه بلا هوادة إلى حياة أجسادها، عيون جائعة إلى عريه وجنونه، تطوف به حول جثتها وتستحثه على الطواف معها وتستنطقه أن يسمى قاتليها.. عيون ساعدها هو نفسه على الخلود فصارت كالنسور الجائعة تلتهم خلايا مخه يوماً بعد يوم، كان في مسيس الحاجة إلى أن يرتاح في عيادته قليلاً، لكن ها هو يهيم الآن في الشوارع ككلب ضال تطارده جيوش العيون الفواتك، ضاعت وجهته من وطأة جسده الثقيل وعينيه اللتين تحلقان بعيداً.. بيوت متشابهة فى شوارع متشابهة، يخرج منها بشر أصبح يراهم جميعاً متشابهين وكأن قدرته على التمييز صارت تقتصر على التفريق بين الميت وأخيه الميت. أشجار السرو المخروطية المتربة على جوانب الشارع الذي طال أمامه، نعم هو ذا الشارع نفسه... يتذكر منذ عشرين عاما أنه صدم بسيارته الـ "سبور" بائع تفاح عجوز، كان يرتدى ملابس مدنية وفى طريقه لالتقاط بعض الأصدقاء والفتيات لسهرة الخميس عندما صاح فى وجهه "العجوز" وهو ينهض من تحت عجلاته:

– أنت اتعميت؟.

نزل من سيارته ومزق جلباب "العجوز" وضربه حتى كاد يموت بين يديه، ولم يسترح إلا بعد ان فرط تفاحه على الأرض للسابلة، وبعد أن رأى دموعه الشحيحة وهو يلهث:

– والله يا "باشا" ما كنت اعرف انك "باشا" يا "باشا"، معلهش يا "باشا" والله اللي ما يعرفك يجهلك يا "باشا"، المقامات محفوظة يا "باشا"،

أنا بيتي اتخرب يا "باشا"، والنبي قول للبلدية يا "باشا" ترجع لي العربية.

يقال ان مدينة المهندسين تم تعميرها بنقود الممرضات اللائي عملن في الخليج، فمن زرع هذا الشارع الطويل كله بأشجار السرو فقط؟ لقد صنع الفراعين من خشبه توابيت للموتى المحنطين... ويعرف أن أوراقه وثماره تحتوى على زيت يستخدم فى صناعة العطور...

زفر "تاج العريان" ليكبح أفكاره وتمتم

مات هذا العجوز – دون شك – مات، وأنا مدين له باعتذار.

تورمت قدماه وندم على أنه صرف سائقه وسيارته، عليه أن ينهى هذا الشارع حتى يجد تاكسيا وعليه أن يقضى عمره متردداً خاضعاً لعيوب برج الميزان، يتأرجح بين الخطأ والاعتذار... بين الرغبة في الحياة والرغبة في الموت... بين حب أبيه وكراهيته، ولن تتزن كفتا الميزان أبداً إلا لحظة سكونه المطلق.. أيعود إلى عيادته مرة أخرى؟ أراد أن يأنس إلى "عبد الرحمن" قليلاً، يتذكر الآن ضحكته المدوية عندما سأله منذ سنوات:

– كيف ترى العين ؟

– أنا مندهش يا "تاج" فعلاً! تصور يا "تاج" أنك أنت الذي يحكم هذا البلد تقريباً. أنت الذي يتربص بالمجرمين، وأنت أيضاً الذي لا يعلم كيف تعمل العين؟ هل هذا حقاً سؤال يا "تاج"؟

يومها هز رأسه بحزن وتأكيد واستمع إلى صوت صديقه الآسر وهو يشرح له قواعد الإبصار التي يعرفها هو جيداً ظل "عبد الرحمن" مسترسلاً كعادته بطلاقة وكأنه أمام مدرج محاضرات..

ثم إن حاكم البصرة طلب من "أبو الحسن بن الهيثم" ان يشيد له

قصراً، وقد كان أيضاً مهندساً بارعاً، فاعتذر قائلاً أخليت قلبي لله والعلم، فاستشاط الحاكم غضباً على "ابن الهيثم" وقبل أن يبطش به تمكن من الهرب تحت جنح الظلام من البصرة إلى بغداد ثم الشام ثم إلى مصر بدعوة من الحاكم بأمر الله وظل بها في أمان لكي تخترع أوروبا من رحم نظرياته واكتشافاته الكاميرا. كاد تاج أن يقاطعه.. يا "عبدالرحمن" هل اخترعوا كاميرا تسجل ما حدث بالفعل؟ هل من الممكن تسجيل الزمن الماضي؟

يومها ظل "تاج" يسأله عن كيف أجروا لأبيه "محمد العريان" عملية بالليزر في الشبكية وما زالت عينه ترى؟ ظل يدور ويلف حوله سؤاله الرئيسي ولكنه لم يجرؤ أبداً أن يسر له بأن عينيه هو تقرآن ما تم حدوثه بالفعل في أعين الجثث المقتولة.

افتح عينيك على اتساعهما ، وكما يليق بحالم عظيم حاول أن تقبض على "شقفة" من وهج الحقيقة

عارف تاج

(٦)

تلكأ وهو يجتاز بوابة فندق "المينا هاوس"، تحمل الأهرامات الثلاثة قرص الشمس وتكسوه رهبة وجلالاً، تأمل البار على يساره، هنا كان يجلس مع "ميرنا" يوم ارتكاب الجريمة، تركها فجأة لتعكر مزاجه ولا يتذكر حتى الآن أين ذهب بعد ذلك؟ أو ماذا فعل؟ المدهش أنه يتذكر كل شيء حتى الثامنة، كل همسة من "ميرنا"، كيف مالت عليه وهي تزيح خصلة شعرها، كيف جعلته عصبياً وهي تحاول بأكثر من طريقة أن تثيره ليتخذ قرار زواجهما، بينما يدافع هو كأي رجل عن حريته بكل ما عرف من وسائل وجمل شائعة ومستهلكة،يتذكر كيف داعب عمال البار الذين يرتدون قمصاناً طويلة بيضاء ذات ياقات منشاة بيضاء

– ترتدون رداء الملائكة وخلفكم الـ"باك جروند" زجاجات المنكر، ده حتة كادر.

بعد ساعتين بالضبط من رحيله قتلت "نفرت جاد"، كوافير "لوسي" قريب جداً من "المينا هاوس" لا يستغرق الوصول إليه في يوم بارد كهذا أكثرمن عشر دقائق بالسيارة، دلف إلى اليمين، سار ببطء في ردهة خافتة الإضاءة تحث على النوم ، فتح ببطء باب الحلاق، لم يقترب من ذقنه أو

شعره منذ مقتلها، ظل معظم الوقت في سريره على أمل أن يداهمه جسدها أطول وقت ممكن. عيناه مفتوحتان وهو نائم، وهى مهرة تخب فوق صدره وها هو يحاول ترويضها، تطورت علاقتهما في الآونة الأخيرة، ولكنها لا تحدثه أبداً، لذا يتساءل طوال الوقت كيف كان صوتها؟! صارت مع مرور الوقت أكثر جرأة، تفتح أزرار بيجامته كلها، تجرده من ملابسه وهى لا يغطيها منذ اليوم الأول الذي احتلت فيه سريره إلا شعرها الغجري الطويل.. يحبها وهى صاخبة تشرع في اقتحامه أول الليل، تجعله يتلصص على ركبتيها المضيئتين وتدس أصابعه في كل نوافذها وتفرجه على وردتها الموغلة في التفتح، ويحبها وهى منهكة تجمع خلاياها، وعيناها اللوزيتان في عينيه المرهقتين وهى تستشرف شكل غيابها الذي أصبح عادياً كما أفول الشمس.

– يا أهلا يا أهلاً يا "عارف" بيه، عاش من شافك.

ميالاً إلى الصمت كان، ولكنه همس كمريض:

– ازيك ياحسن مش عارف اقص شعرى ولا اسيبه طويل؟

أصابعها تتخلل شعره طوال الليل.. فهل يتركه لها أم يحلقه كما كان؟ سيجن قريباً إذا ظلت "نفرت جاد" في سريره لوقت أطول، يهرس جسدها جسده ليلاً ويدهس قتلها عقله نهاراً

حدثه الدكتور "عبد الرحمن" كثيراً عن أمها، لأول مرة يراه حزيناً وشفافاً وليس ساخراً كعادته.. إذا كنت جاداً في معالجة هذه الحادثة سينمائياً اجعلني أساعدك قليلاً حتى لا تقول ما قيل مراراً، لأن ما قيل مراراً ليس الحقيقة على الإطلاق فالحقيقة إذا لم تكن مفزعة فهي ليست حقيقة.. يا "عارف" إذا رأيت "لوسي" مجرد داعرة تسببت في مصرع

ابنتها فسوف تقول ماتم قوله آلاف المرات ، تخيل امرأة تجاوزت الخمسين.. خفت كثافة شعرها، وبدأت الخيوط الدقيقة الكثيرة تظهر تحت عينيها، تقضى وقتها كله في محاربة شبح لا يكف عن العبث في جسدها، يغير شكل استدارة ردفيها ، ويملأ بالدهون فخذيها وبطنها، ويفسد التفاف ساقيها وذراعيها، فتغطى كل يوم جسدها بمسحوق الترمس والليمون، وتضع على وجهها أقنعة الخيار وعسل النحل والفراولة والزبادي وجنين القمح، تدهن تحت عينيها كريمات لإزالة التجاعيد والانتفاخات والهالات السوداء، وتزيل السواد والخشونة من الركبتين والكوعين، تنقع شعرها في حمامات طويلة من زيت الزيتون والسمسم والجرجير والخروع والنخاع ، وتكافح كل يوم بلا هوادة ظهور الشعيرات البيضاء، تقف كل صباح أمام مرآتها راضية عن نتيجة مجهوداتها ، ولكنها تعرف جيداً أن شيئاً ما يحدد سنها غير ذلك كله.. ربما نهش الزبائن المتكرر لها.. ربما الخيبات والهزائم المتوالية والتي كان آخرها هجر "أيمن بركات" لها ورميها على ناصية فى شارع "تحتمس" ككيس قمامة، بل التوله أيضاً في حب ابنتها.. ربما الليالي الخالية الموحشة التي تتراكم وتكون طبقة فوق الجلد يستطيع حتى الأعمى رؤيتها وتحديد سنها.. عينان تميلان إلى الاخضرار، وجه أبيض مستدير تفننت في تنوع ملامحه مجموعة لا بأس بها من الجنسيات تركية.. عربية.. إنجليزية.. فرنسية، ولم تنس أن تزينه في النهاية بأنف أفريقى كبير، وجه يجعل من يراه يتجاوزه على الفور حتى لا يفكر فيه ويعيد تذوق هذا "الكوكتيل" المعقد.

تخيلها وهى تضع فوق جفنيها خط "آى لاينر" أخضر رفيعا، تلمع عيناها فجأة لأن واحدة من عاملات الكوافير أخبرتها بوجود سيارة "أيمن بركات" أمام الباب، ثم تصور أنه بمجرد أن يراها ينطلق هارباً وهو يسبها

ويلعنها فتعرف أنه كان بانتظار أن يرى ولو لدقيقة "نفرت جاد"، و"نفرت جاد" تدخل عليها ليلاً بعد اجتياز التمرينات المبدئية لخوض مسابقة miss Egypt. تتأمل دموع أمها وتمد بضيق يدها لريموت الفيديو وتتأفف ببرود:

– أف يا "ماما" عشرين مرة شفت الـ "pretty woman" ده.

تخطف منها "لوسى" الريموت وتستمر في التحديق في وجه "جوليا روبرتس" من خلال دموعها.

فتتنهد "نفرت" بازدراء

– يعنى كل يوم لازم نشوف قصة الداعرة دي، وبعدين دي كان سنها صغير، وهو مليونير أمريكي متحضر ونبيل، مش دون زى "أيمن" بتاعك.

تنظر لها "لوسى" بكل الكراهية التي حلت محل الحب الذي أغرقتها فيه حتى دخلت الجامعة وفار جسدها وتحولت إلى تلك الأنثى المثيرة.

ترتبك "نفرت"

– يا ماما أنا خايفة على عينيك، شايفة بقيت إزاى، وعلشان إيه كلب وحقير لا يستحقك .

تصور يا "عارف" لا شيء على الإطلاق يشبه كره المرأة للمرأة، تصور آلاف المشاهد والتفاصيل التي تشبه هذا المشهد والتي جعلت "لوسى" خارج الزمن لا تستوعب حتى الآن ما حدث، ليس منذ مقتل ابنتها وإنما منذ اتفقتا اتفاقاً شبه سرى على أن تبيع الأم الجسد وتستمتع الابنة بعائده ثم لا تسامحها أبداً، فتحول حب الأم ببساطة إلى منافسة بين امرأة في عز شروقها وامرأة غاربة ظل جسدها أداة لإمتاع الكثير من

الرجال، وضنت عليها الحياة بأن يستمتع هذا الجسد ولو لمرة واحدة مع الرجل الوحيد الذى أحبته.

ثم فجأة يصرخ "عبد الرحمن":

– حتى هذا كتب مراراً وتكراراً، أقول لك يا "عارف" اكتب أي زفت، قال يعنى أنت اللي ها تنقذ السينما المصرية من ألعته اللي هي فيه؟!

بعد ست سنوات وشهر واحد من تاريخ هذا اليوم، ستدمع عينا "عارف تاج" وهو يتسلم جائزة أحسن فيلم من "مهرجان القاهرة السينمائي" وإلى جواره "ميرنا " التي أخذت اسمه فصارت "ميرنا عارف"، تبتسم للكاميرا وهي تتسلم جائزتها كأحسن ممثلة عن فيلمه، و سيتذكر الدكتور "عبد الرحمن" وسيظل لديه وإلى الأبد أمل أن يكون قد رأى الفيلم برغم موته قبل الشروع في تصويره، سيمنى نفسه كلما قرأ موضوعاً عن معتقدات إحدى الديانات في شكل الحياة بعد الموت أن يكون الأمر هكذا، وأن الدكتور "عبد الرحمن" استطاع إن يرى فيلمه سواء كان روحاً هائمة أو متناسخا في جسد إنسان أو كلب أو حتى خنزير، المهم أن يكون قد رآه، نعم لم يستفد من جدوتة "نفرت جاد" إلا بالحالة النفسية التي وضعته فيها والأجواء المروعة للجريمة، ولكن ظلت إشارات "عبد الرحمن" هي السبب في نجاح فيلمه.

انتبه لصوت أجش ظن في بداية الأمر أنه ينبعث من الراديو وانه يتلو القرآن الكريم، ولكنه من خلال المرآة تابعه وهو يتطلع إلى وجه صاحبه الوسيم الذى كان تقريباً في بداية الأربعينيات، يمسح عن وجهه بقايا "ماسك" ما بعد الحلاقة، تعجب إن يصدر هذا الصوت عن ذلك الوسيم.... ياأخي هل تعلم. لقد "هتفت امرأة باسم "نصر بن حجاج"

وتمنت أن تشرب الخمر وتلقاه، فأرسل إليه "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه وأرضاه، فإذا هو أحسن الناس شعراً، وأصبحهم وجهاً، فأمره أن يجم شعره، فظهر جبينه ووجنتاه فازداد حسناً، ثم أمره أن يعتم فزادته العمامة زينة وغواية، فقال: "لا يسكن معي رجل تهتف به العواتق في خدورها"

يا أخي هذا هو الإسلام، يحارب فيه جمال الرجل، فما بالك بجمال المرأة التي هي أساس الغواية وكل الشرور؟ يا أخي إن من قتلها قد أعز دينك، وأنت تكاد تبكي على امرأة من الكاسيات العاريات، كانت تحضر نفسها للسفر والتهادي على مسارح الدول الكافرة بالخارج مع عاهرات العالم اللائي يفسدن لنا نساءنا.

ميالاً إلى الصمت مازال، ظل "عارف" ينظر إلى وجه "حسن" في المرآة وهو يحمر خجلاً ولا يقوى على الرد، صاح رجلان آخران ينتف لهما العاملان حواجبهما فى نفس واحد:

- أحسنت والله يا مولانا.

وهزت رأسها استحساناً وتشفياً المرأة البدينة ذات العينين الضيقتين التي تجلس على الخزينة .

يتحدثون إذن عن "نفرت جاد"، ترى من أين بدأوا؟

تأمله "عارف" طويلاً.. عينان واسعتان كحيلتان كعيني "عمر الشريف" في أوائل أفلامه، قامة طويلة ممشوقة، شفتان ممتلئتان وحازمتان بابتسامة ساخرة وكأنها ملتصقة بهما طوال الوقت، جرده من ملابسه بسرعة، ألبسه عباءة واسعة سوداء طويلة ونقابا وقفازات سوداء من تلك التي ترتديها المنتقبات، وتقابلت أعينهم في المرآة، تأملا بعضهما البعض بإمعان حتى تصور "عارف" أن الوسيم المنتقب سينهى الأمر وسيصيح في وجهه:

– نعم أنا قاتلها

ظل يتأمله وهو يفكر.. تطاردني عند الحلاق أيضاً، كان من السهل عليها أن تشير إلى قاتلها حتى ولو كان هذا القاتل "أنا" ثم تمضى إلى غيابها الأبدي بدلاً من تركي هنا على حافة الجنون.

بعد سبعة أشهر من تاريخ هذا اليوم سيكتشف "عارف" أن "نفرت جاد" وضعت بالفعل قاتلها في طريقه ولكنه لم يصدق الإشارة.

دخل إلى مكتب "عمر الجوهري" كلاهما كان برما بالآخر ولكنهما ظلا لأكثر من ثلاث ساعات معا، طلب له "عمر" بيتزا بالمشروم وطلب لنفسه دجاجة مشوية التهمها كاملة، وهو يسب "لوسى" بأقذع الألفاظ، ويعود ليردد في حسرة وهو يحاول تقليد صوت "تاج العريان":

– حوالي عشرين سنة وهى شغالة مومس وقوادة على كبير ولا قضية دعارة واحدة ضدها، شفت ذكاء بنت الوسخة

لم يلفت انتباهه هذه المرة في مهاترات "عمر الجوهري" إلا نتيجة تحرياته عن القائمة التي حدثه عنها أبوه، والتي على رأسها "ليلى طوسون"، يحب "أحمد عواد" الأسطى الأول في كوافير "لوسى" عانس أربعينية اسمها "ليلى طوسون"، و"ليلى محمود طوسون" هي حفيدة أمة شركسية كانت "قلفة"[1] في قصر "عمر طوسون" بالأسكندرية، أنجبت هذه القلفة ولدا وهى في سن كبيرة ومن حبها في أمير القصر، طارت إلى معارفها في كفر الدوار وأسمت ابنها سراً "طوسون "، وعندما قامت الثورة ماتت القلفة حسرة على عصاها الذهبية الضائعة وخدمها الذين تم تسريحهم في القرى القريبة، كبر "طوسون" هذا وتزوج وأنجب عشرة من الأبناء ظلوا يرعون في خمسة فدادين، ولم ينل من عز أمه القديم إلا اسمه

المسروق وحكايات عن نخلات من الكريستال تحمل أغصانها شموعاً، وراقصات يهبطن السلالم ببطء لاستقبال الضيوف، وأوانى طعام من الذهب الخالص مرصعة بالجواهر، عن جناح حريم في القصر يعج بالمغنيات والموسيقيات، عن مربيات إنجليزيات وفرنسيات، عن الأميرة "فاطمة" التي كانت مجوهراتها يوم زفافها ثقيلة لحد ان اثنين من الأغوات كانا يسندانها لتتمكن من المرور عبر قاعات الاستقبال، تلك المجوهرات نفسها التي تبرعت بها لبناء جامعة القاهرة، عن هسيس الحرير والقطيفة والموسلين وعن غناء الجواري والخدم، لم ينجب "محمود" – أصغر الأبناء العشرة – إلا ليلى هذه،كانوا يعيرونها وهى صغيرة لكونها شهباء، يجرون خلفها مستهزئين: عدوة الشمس أهى.

لم ترث من تاريخها المرتبك إلا روح جدتها الشركسية، كانت أنيقة بسيطة، تتأفف من القذارة والزحام وقد قررت لها أقدارها أن ينتقل أبوها من عمل إلى عمل حتى وصل إلى شبرا بحثاً عن مكان أرخص للعيش، فسكنت فى شارع مسمى باسم جدها،كلما تقدمت "ليلى" فى السن كانت الشمس تكسبها لوناً حتى صارت بيضاء عادية بعيون زرقاء وذيل حصان أصفر ظل يتهادى على ظهرها حتى الأربعين، هادئة وعانس وصامتة لحد الخرس، كانوا يسخرون منها فى المدرسة:

– عاملة لنا حفيدة "طوسون" يا أختي؟!

لم يكن لديها تعليقات، كانت أكثرهم فقرا، فما الذى يجعلها تحن دائماً إلى حكايات أبيها عن جدها وعن جدتها.

تخرج من باب مدرسة "شبرا الثانوية" التي كانت قصراً لـ"طوسون" ابن "محمد على"، تضع فى حقيبتها الواسعة "كتاب

الانجليزية للمرحلة الأولى من الثانوية" تقف أمام الباب كعادتها نحو نصف ساعة وكأنها فى انتظار أتوبيس ما، تجرد المدخل من الباعة الجائلين وأكوام القمامة والمدرسات المسرعات فى أسمالهن، والمدرسين ذوى الذقون الذين يسيرون ووجوههم إلى الأرض، فتختفى المدرسة فجأة خلف أشجار لا حصر لها وأزهار ورياحين تنمو على شلالات صناعية، وحيوانات جبلية وطيور نادرة تزقزق فى سماء زرقاء.

سيجدها "عمر الجوهرى" وستقف مرتجفة أمامه لتجيب عن أسئلته الغبية حول ضياع تليفونها المحمول، وحول الأسماء المسجلة عليه والتى شملتها القائمة المشتبه فيها وعلاقتها بهذه الأسماء؟ ولماذا برأيها سجلها "أحمد عواد"؟ حول آخر مرة رأت المتهم الأول فى الجريمة؟

ستكون اجاباتها كلها بـ "لا أعرف"، ولكنها ستعترف بأن جارها "أحمد عواد" أوقفها ذات مرة فى الطريق وبسنواته العشرين طلب منها الزواج، فصدقت طلبه من لمعان عينيه ووضوح نبراته، ولكنها أشاحت بوجهها وواصلت خطواتها، وهو يردد خلفها:

– مالك، قولى موافقة.

– أنا أكبر منك بعشرين سنة.

– وماله، وانت مدرسة انجليزى وأنا كوافير، قولى موافقة.

ابتسمت فى وجهه وكأنه معتوه أو مسكين، وهزت رأسها بيأس ونفاد صبر وهى تحاول إيجاد كلمات مقتصدة: أنا مستغربة.

يومها سرق تليفونها المحمول حتى يجد عذرا للحديث إليها وهو يعيده لها، ثم ظل طوال صباح يوم الإثنين – يوم إجازته – ينقل الأسماء المسجلة على ذاكرته ليحدد من من صديقاتها تستطيع مساعدته فى

الوصول إلى "ليلى طوسون"

يحجز "عمر الجوهرى" "أحمد عواد" منذ أيام، ومنذ أيام يصعب على "أحمد عواد" الإجابة على أى من أسئلة "عمر الجوهرى" أو حتى وصف حالته، لقد ظلت "ليلى" طوال سنوات عمره جارته، سيطرت على أفكاره شابة ثم امرأة، فكيف يستثمر فيها الآن كل هذه الأيام التى قضاها معها فى خياله المراهق وخياله كرجل، كان يعتبرها غبية أن تضيعه من يدها، هو الذى دفع فيها أكثر مما ينبغى، ألا تعرف أنها كانت الحلم الذى ظل يحلمه وهو مفتوح العينين وهو مغلقهما وهو فوق عدد لابأس به من النساء! هو لا يتذكر كيف بدأ انجذابه إليها.. وهو طفل فى الخامسة كانت هى متخرجة من الجامعة وتبحث عن عمل، يراها وذيل حصانها الأصفر يتهادى فوق ظهرها فيردد:

– عندما أكبر سأتزوج بنتاً تشبه هذه.

وأخذ يكبر أمام فتاته ولا تكبر هى، ظلت على حالها وحيدة وحزينة وبعيدة كأنها محاطة بغلاف بلاستيكى شفاف، كان ينتظر طوال الوقت أن يجد لها زوجا وأطفالا ولكنها بقيت كصورة على جدار أيامه لا يهاجمها شعر أبيض ولا ترهل.

أفاق "عارف تاج" على جئير "عمر الجوهرى":

– قال بيحب ابن الوسخة، قال وايه بينضرب وهو ساكت وقال ما يعرفش شغلة "لوسى" الحقيقية، ولا كان بيتدخل إلا فى كوى شعر البنات ومكياجهم بس.

– يا "عمر" حرام عليك، انت عارف إنه مش القاتل

– طبعاً عارف، لكن ما هو لازم يكون فيه قاتل، خليه فى الحجز،

يعنى هو بيعمل إيه بره؟! على الأقل لحد مايظهر أى قاتل غيره.

بعد ليلة الأمس قرر "عارف تاج" أن يهرب منها تماماً، قضى ليلته على الأرض، يصلى عشرات الركعات ويدعو الله أن يساعده لترحل "نفرت جاد" إلى الأبد، ظل يفكر وهو ممدد على سجادة صلاته.. هل يذهب غداً إلى قبرها فى مدافن ٦ أكتوبر ويقوم بربط جثتها جيداً ووضع الأحجار عليها كما كان يحدث فى البرازيل فى القرون الوسطى؟ هل يقطع رأسها ويدفنه فى الصعيد مثلاً فلا يتعرف جسدها على نفسه كما كان يحدث فى إفريقيا؟ هل يحرق جثتها ،بينما يرقص حولها بهستيريا مردداً تعاويذ تجعلها تختفى إلى الأبد كما كان يحدث فى غابات الأمازون؟

هبطت عليه من حافة السرير كشلال هادر خمرى، فى عينيها اللوزيتين عتاب ساخر، التقت شفاههما بعنف حتى كاد يسمع صوت اصطكاك أسنانهما فى البيت كله، أوجعته عظامه كلها من النوم على الأرض، فجمع شعرها كله فى يد واحدة وشده بعنف حتى كاد يخلعه من مكانه، واقترب من وجهها وأخذ يجفف فيه حبات عرقه ويستغيث وهو يعلم أنها لن تجيب:

- أحبك وأكاد أجن.

فى الصباح أوجعه الموسى الذى ظل يمر على أماكن جروح أسنانها، ولمحت أمه الخدوش على ركبتيه فحاول تبريرها بأكثر من طريقة، وظل هو يسير بجسده الفارغ الطائر نحو سيارته.

توقف فجأة واشترى مجلة أزياء على غلافها صورة ملكة جمال مصر المنتخبة يكلل شعرها الأصفر التاج الذى كان ولابد أن يكون على رأس "نفرت جاد" سيترك نفسه تماماً لـ"ميرنا"، اليوم رد على تليفوناتها أخيرا،

اتفق على أن يسهر معها الليلة، سيلتصق بها طوال الوقت، فربما كانت هى المنقذ، وقف أمام بيتها، راقبها وهى تقفز إلى جواره فرحة، لسعت يده يدها الباردة، شفتاها اللتان لامستا جبينه ميتتان، عيناها منطفئتان برغم بريقهما، ابتسم بمرارة وهو يقول:

– عايزة تسهرى فين؟

– أى مكان.. المهم معاك.

بعد سنتين عندما تصير زوجته سيتذكر هذا اليوم سيسوى شعرها بيد حانية وسيقبلها قبلة اعتذار طويلة لن تفهم سببها أبدا.

تحب أن تتناول عشاءها على مركب فى النيل، أخذها إلى "سكاربيه" وأمام وجهها الشمعى لم يجد كلمات يتفوه بها، الأزياء لامعة لحد إزعاج عينيه، الموسيقى صاخبة تكاد تختفى فيها تأوهات وهمهمات "نفرت جاد" و"ميرنا" تجره جراً من ملكوته وهى تتحرك على كرسيها وكأنها فتاة إعلانات على شاشة بعيدة، يكره أنفها وغمازتيها وشعرها القصير الناعم الملتصق بقرطها، ذراعها العاري، ويكره ابتسامتها المبتهجة الراضية، دار رأسه مع راقص التنورة، لم يتذوق الطعام الذى طلبه، وود لو استطاع رمى نفسه فى النيل ليتخلص من كل ذلك، أخذ ينظر بعمق إلى الماء هارباً من عينيها حتى وصلا إلى الشاطىء، جلس لدقائق على مقدمة سيارته ثم قرر أن يغادر المكان كأى نذل مجنون ناسياً فتاته على الرصيف، فلقد استحالت "ميرنا" فجأة والجمل تقفز مرحة من فمها إلى قرد حقيقي.

يلحتف الملك بأغنيات صدئة ويتكيء على عصـــا يرعـــى فيهـــا السوس، ويهيل السواد من حالق على ما يحكم من خرائب.

تاج العريان

(٧)

دخل عليه "عبد الرحمن" بصخبه المعتاد:

– يعنى إيه يا تاج ، هو كل واحد يبطل عضوه شغل ينام فى السرير كده على طول؟!

– والله الباشا عنده حق ، انت فعلاً وسخ وبالمناسبة ممنوع تكلمه تانى

– خسارة وادى متعة تانية راحت منى، عارف يا "تاج" لو ده بابا كنت حطيت جنبه تسجيل صغير وفضل يحكى، لازم الباشا يحكى يا "تاج" ده عارف حاجات مهمة جداً ده جزء من تاريخ مصر يا راجل.

– مالك بالتاريخ يا بتاع المجانين انت ، اتنيل وقول لى أخبار "لوسى" إيه ؟

– اسمح لى أشوف أخبار ريجيم "نسل هانم" وتكون انت قمت من السريروتقعد معايا محترم فى المكتب ، ماشى يا "تاج"

خرج يتبعه سباب "تاج العريان"، تسلل إلى غرفة أبيه، قال للممرضة إنها صاحبة أجمل ساقين، فخرجت تصنع له قهوة سادة بيدها،

اقترب من وجه "الباشا " وهمس فى أذنه وبعد يا باشا وبعد.. بعد أن أفرجتم عن الأصوليين المسلمين ورحتم تشجعون الإتجاهات الدينية المتعصبة، وترسمون علامات الصلاة وسط جباهكم لتساعدوا أمريكا فى حربها الضروس على عدوها الأول - المعسكر الشيوعى- هل فكرتم أنتم وأمريكا فى مصير هذا الوحش الذى أخرجتموه من القفص؟ الوحش يرتع الآن فى الشوارع يا "باشا" يأكل الأخضر واليابس، لا يفرق بين أمريكى أوهندى. هل رأيت يا "باشا " كيف دخلت الطائرات فى البرجين كما تدخل السكاكين الفضية فى تورتة عرس ناعمة؟! تكلم تكلم يا "باشا" كيف يتم حبس هذا الوحش مرة ثانية؟! حذار أن تموت قبل أن تجيب عن هذا السؤال يا "باشا"

تسلل إلى غرفة المكتب وهو يحمل فنجان قهوته ويغمز للممرضة بألا تقول لـ "تاج العريان" إنه كان فى حجرة "الباشا"

- "عبد الرحمن" هل من الممكن أن أرى حلم يقظة مثلاً ثم اكتشف أنه قد حدث بالفعل؟

- انت عجزت يا "تاج"، أنا خايف يكون عندك بوادر"زهايمر"

- يا أخى خدنى على قد عقلى وجاوب.

- هل تعرف ماجاء فى التلمود يا "تاج": "الأحلام التى لا نفسرها أشبه بالرسائل التى لا نقرأها" احك لى حلمك وسأحاول تفسيره.. هه.

صمت "تاج" وهو يهز رأسه بعجز، فأخذ "عبد الرحمن" نفساً طويلاً من سيجارته

- على كل حال لقد عرفت البشرية نوعين ما يعرف بالأحلام، وما يعرف بالرؤى ولقد سود المفكرون والفلاسفة والأطباء حتى الآن

ملايين الصفحات فيهما، ولكننى أحب كلام "إريك فروم" عن الأحـــلام يقول: "خلال النوم يتراجع ملكوت الضرورة ويخلى مكانـــه لملكـــوت الحرية وتغدو كينونة الـــ"أنا" مرجعية الأفكار والمشاعر الوحيـــدة "أمـــا الرؤى فأشهرها كما تعلم، رؤية سيدنا يوسف "إذ قال يوسف لأبيه يـــا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ســـاجدين" ورؤية ملك يوسف" وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان. يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رءياى إن كنتم للرءيا تعبرون"

لم يعد شيء يدهش "تاج" فيما يستطيعه صديقه، ظل فقط يتساءل من أين له بالوقت ليحفظ تلك الأسفار ويطلع على التاريخ والسياســـة والعلوم، وما تعثر شخص فى آية قرآنية أو نص فى حضرته إلا وسارع إلى نجدته.

حكى له أن "لوسى" وقعت فى الحب وهى على حدود الخمسين وأن المرأة إذا أحبت حباً حقيقياً فى هذه السن تكون اشبه بلبؤة هائجة إذا ما فكر أحد فى اختطاف فريستها منها، كان همها الأول والأخير الاحتفاظ بـــ"أيمن بركات" وهو فى الثانية والخمسين صاحب أجـــنس ســـيارات، وبالطبع انتهى منها وكان فى سبيله إلى تركها ولكنه رأى فى هذه اللحظة "نفرت جاد" وجن بها ، فظل الثلاثة يدورون فى مثلث الرعب التقليدى، هو يطارد "نفرت" و"نفرت" تحتقره وتحتقر أمها وتقتص منهما بجمالهـــا وبرودها وانسحابها ، " لوسى " تطارد " أيمن " "وأيمن " يحتقرها ويتمنى موتها لاعتقاده أنها لو لم تكن أم "نفرت جاد" فلربما أحبته البنت. بالطبع جرب أن يطارد "نفرت" فى أماكن أخرى غير الكوافير ولكنها هشته كما تهش ذبابة قذرة.. جرب أن يغيظها بأمها التى كانت تركع تحت قدميـــه

حتى لا يتركها فتمط "نفرت" شفتيها وتتركهما وهى تنظر إليهما بنظرة هى نفسها النظرة التى تلقيها على كلبين متناكحين أو متعاركين "لوسى" التى أدركت الأمر عيرته بأنها فى مثل سن ابنته وهو عيرها بأنها عجوز شمطاء برغم انها تصغره بسنتين، أيمن كان على حافة انهيار غير محدد الملامح و "لوسى" على حافة انهيار تقاومه بنوبات إغماء طويلة ودموع لا تنتهى إلا عندما يزورها فتعتقد أنه لن يستطيع نسيانها ويعلم هو أن "نفرت" لم تترك له مكاناً ليراها فيه ولو بالصدفة إلا هذا.. تقول "لوسى" إن "أيمن بركات" قتل ابنتها، وقد يكون هذا مجرد رغبة فى الانتقام منه ومن نفسها.

صاح وهو يبتسم بدهشة وكأنه يتابع "ماتش" كرة قدم:

– "تاج" أنا مش عارف "عمر الجوهرى" ممكن يلاقى القاتل إزاى؟ ده كل الناس كانت عايزة تقتل البنت حتى أمها وعشيقها.

– بالضرب يا دكتور.. بالتعذيب.. "عمر" ها يحجز كل المشتبه فيهم، واللى مش هايتحمل الضرب ها يعترف.

هز "عبد الرحمن" رأسه موافقاً وكأن الأمر لا يعنيه، وقبل أن يغلق خلفه باب المكتب قال بصوت باك يائس وكأنه يقرأ من كتاب:

– ما ظنك برجل ضاجع امرأة قتلت ابنتها منذ يومين؟!

ثم صمت وابتلع ريقه... بلاش دى.. ماظنك بامرأة تأوهت تحت رجل بعد مقتل ابنتها بيومين.

فتح "تاج" فاه، أراد أن يضع فنجان قهوته على المكتب فارتجف فى يده واندلقت بقاياه على كم قميصه. نشر كفه أمامه.. تابع ارتعاش أصابعه وقاوم رغبة عارمة في أن يدخل على أبيه ليستفسر عن سبب

نشيجه المشروخ.

"العريان" يبكى الآن ويصارع الموت بضراوة، هذا المحارب الـذي أزاح الكثير من الرصاص عن جسده... حاك المؤامرات.. ظـل يهـش النساء عن وجهه بعد فضهن.. دانت له جباه الكثير من الرجال وامتطى طوال أيامه نصل سيف لامع وباتر عبر بـه مئـات الـذرى القاتلـة والمدهشة.. لم يستغرق فى النوم قط لدرجة أن يحلم.. هل هو نفسه الذى يبكى الآن؟!

باب حجرته مفتوح، تجلس بالقرب منه "نسـل شـاه" تسـقيه "الشوربة" بيدها حتى تأخذ ثوابه فى الآخرة، تربت على عظـام كتفـه، تدعو له.. تشترى له ملابس جديدة برغم علمها أنه ربما يموت اليوم أو غداً.. تريح رأسـه على أكبر عدد من الوسائد، تبتسم فى وجهه وهى تردد:

– ما شاء الله وشك منور يا "باشا" فيدعو لها متهتهاً، حتى إذا مـا استدارت وتذكر هو شيئا يغيظه منها يصرخ كقرد يتقافز على الأغصان:

– إنت يا واد يا وسخ.

تضحك الممرضة ويبتسم "تاج" عائداً إلى مكتبه وهو يحاول إيجـاد علاقة بين جسد زوجته البدين وما ينعتها به أبوه، تخفت الأصوات مـن حوله فجأة، يرى نفسه صاعداً درج قسم شرطة الساحل، مـن حولـه يهرع العساكر والضباط يتهامسون فيما بينهم.. العريان وصل.. يحمـر وجهه وأذناه ولكنه يرد بهدوء على تحياتهم العسكرية، حاول أن يثبـت اسمه "تاج محمد" على ألسنتهم ولكنهم كانوا يلغون ببساطة اسمه واسـم أبيه ويسمونه فيما بينهم "العريان" ظل طوال سنوات طفولتـه وشـبابه

يخجل من اسم جده الذى جاء بعد إحدى عشرة بنتاً وثلاثة أولاد ماتوا كلهم بعد أشهر من ولادتهم ، فسماه أبوه "العريان" حتى يعيش، ولقد عاش وعاش بعده خمسة أولاد.

يحكى "محمد العريان" عن أبيه انه كان خادما ابن خدم، برغم أن "العريان" كان من الملاك الصغار المستورين فى الشرقية، كان يكرهه لأنه عندما هلل لرجال الثورة وهو يفرد أمامه صورة الملك "فاروق" وهو يصعد إلى مركبه "المحروسة" مغادراً البلاد:

– شفت يا "بابا" طردوا الحرامى الخائن إزاى.

ربت "العريان" بهدوء على النجمة الساطعة على كتف ابنه وقال وهو يجز على أنيابه:

– عمرك شفت واحد بيسرق أملاكه.. دى أملاكه يا عويل.. الحرامى هاتكون انت – إن شاء الله

ورفض"العريان" أرض الإصلاح الزراعى، مدعياً ان أرضه تكفيه وأولاده الستة، باع بعد سنوات من قيام الثورة خمسة أفدنة، اشترى بثمنها صحراء فى "الصالحية الجديدة" وظل يصارعها حتى فرح باخضرارها قبل موته.

لم تعد تؤلمه ذكرياته عن اسم جده، لم يعد يخجل منه، ذات مرة سمع أحد زملائه يتهكم على أحدهم.. يبدو أنه كان يهدده:

– سأقول "للباشا"

– "الباشا" مين لامؤاخذة "العريان"

ابتسم وهو يتذكر ضيق صديقه "عبد الرحمن" من اسمه أيضاً

ومحاولته تثبيت لقبه على ألسنة الناس "عبد الرحمن الكاشف" ولكنهم كانوا ينحون "الكاشف" ببساطة ويلصقون اسم أبيه به عنوة ويتهتهون الدكتور "عبد الرحمن عبد الرحيم" برغم ثقل نطقه.

يتأمل الآن كره "محمد العريان" لأبيه العريان الكبير، وكرهه هو لـ" محمد العريان " إنه يتمنى موته كل يوم ويتساءل:

هل لهذا دعت الديانات السماوية والوصايا العشر والأسفار القديمة كلها إلى البر بالوالدين؟ هل كانوا يعرفون صعوبة محبة الوالدين فى الكبر؟ هل هى غريزة فى الإنسان أن يتخلص من أبيه؟

فتح الملف الذى استولى عليه دون علم "عمر الجوهرى"، ظلت تبحلق فى وجهه جميلات العالم.. ثمانية وخمسون متسابقة يصطففن فى عرض بملابسهن الوطنية التقليدية التى تمثل ثمانية وخمسين دولة، ثم صورة بألبسة البحر البكينى، ثم بملابس السهرة اللامعة، ثم صور لهن فى بعض المصحات والخيام الناتجة عن كوارث طبيعية أو حروب، مائلات على المرضى والمنكوبين بظهر جميل عار أو صدر بارز أو شعر طويل يخفى الوجوه المتألمة والمشوهة، أو أسنان لامعة لابتسامة مشرقة تكسر حدة جنون القبح، ثم صورهن فى محاضرات يتبادلن بصوتهن الرقيق أو ذى البحة الآراء حول قضايا مثل السلام العالمى والمشكلات الاجتماعية والرفق بالإنسان والحيوان وتلوث البيئة، أو يزقزقن فى بعض المظاهرات السلمية ضد احتلال بعض الدول لبعض الدول. تنهد "تاج " وهو يتأمل ابتسامة ملكة جمال جمهورية الدومينكان:

لماذا لم تجرب البشرية حكم هؤلاء الجميلات؟!

يتذكر الآن صراخ "عبد الرحمن" فى وجهه... ماذا تظن نفسك يا

"تاج"! هه نحن مجرد بيادق عندهن، انهن يلعبن شطرنج بنا طوال الوقت، هن اللاعبات يا "تاج" هن أصحاب الحياة. بطونهن قادرة على مجيئنا أو الاعتراض على مجيئنا. والمصيبة أنهن فى المستقبل القريب سيكن قادرات على شراء أى حيوانات منوية من أى سوبر ماركت والاستغناء عن مجهوداتنا تماماً، كل مجدنا اننا كذبنا طوال قرون حتى نستولى على حكمهن للحياة، حدثناهن عن الشرف حتى لا تجرؤن على تعريتنا أو التحدث عن عجزنا وشكل أعضائنا، نحن محدودو القدرة على الفعل إذا مارسنا مضاجعاتهن، لانقوى على العمل والمتفوق منا هو العاجز عن المضاجعة كما ينبغى، وكأن الطبيعة تقول لنا إن الطاقة المصروفة لنا يجب أن تذهب للمرأة كى تدير هى الحياة، لقد كذبنا عليهن يا "تاج" وانتصرنا عليهن هل تعرف لماذا؟ لأنهن الأرقى، ادعينا طوال قرون أننا فحول وأننا يجب أن نتزوج الكثير منهن واخترعنا لهن بيوت الدعارة لأن امرأة واحدة لا تكفينا، بينما العكس صحيح لا يستطيع الفحل منا أن يكون كافياً لامرأة واحدة إلا إذا كان مخلصاً لها تماماً، ومع ذلك حاربن لكى يكن مع زوج واحد، لقد أوقعناهن فى شرك شرنا فظللن يدرن لقرون فى الحكايات الكاذبة والأغانى العقيمة التى ألفناها لهن وصدقن أنهن الأقل وأنهن مومسات أو قبيحات إذا ما خرجن عما سطرناه نحن بأيدينا.

تأمل من جديد الجبين المضىء والشفتين المكتزتين واليد اللدنة التى تحاول تثبيت تاج الماس اللامع وهى تنحنى بابتسامة تزيد من اخضرار العينين، قرأ تحت الصورة "نادين الأشقر" اللبنانية التى تستعد لتمثيل لبنان فى مباراتين للجمال.. ملكة جمال لبنان فى أوائل ٢٠٠٣ وملكة جمال العالم فى يونيو من العام نفسه.

كتبت "نفرت جاد" أعلى الصورة: الطول هو نفسه ١٧٥ سم

والوزن هو نفسه ٦٠ كيلو جرام، سنها عشرون عاماً وسنى ثمانية عشر عاماً ، و"نفرت أحلى"

يعلم جيداً أن "عمر الجوهرى" لن يجد قاتلها، لقد أخذته معها وإلى الأبد، ما الذى سيفعله هو الآن كلواء متقاعد؟ هل سيجلس حتى ينتشر لحمه حوله مثل "نسل شاه"؟ قرر أبوه عندما ترك الجيش برتبة لـــواء أن يقيم إمبراطوريته الخاصة وعمل بجدية رجل عسكرى حتى اصبح لا يمكنه الآن حصر ممتلكاته، لطالما احتقر أبوه زملاءه الضباط المتقاعدين الـــذين خرجوا من كل فجاج الجيش والبوليس واحتلوا كل محافظات جمهوريـــة مصر العربية كمحافظين وركبوا بعض وزارات الدولة وهيئة الرقابة على أقلام المبدعين وعلى حناجر المطربين وآلات الموسيقيين ربما لكي يضبطوا الإيقاع وعلى مسارح العرائس وغير العرائس والمياه والكهرباء وطردوا الكتاب والصحفيين من جرائدهم ومجلاتهم واحتلوا كراســيهم بعــد أن أرسلوهم لأقسام الملابس الداخلية فى عمر أفندى وشــيكوريل أو باتــا للأحذية أو الأجهزة المركزية للاتصالات والمحاسبات ومهرجانات السينما وقصور الفنون التشكيلية والحدائق الثقافية وغــير الثقافيــة والإذاعــة وأعوانها.. سلط أفكاره الغاضبة من جديد على أبيه "محمــد العريــان" هامساً بازدراء.. كان يعرف أن عمله المستقل سيحقق له أكثر مما حققه زملاؤه، ولو لم يمرض الآن لاحتل الكرسى الذى يريده حتى بعد تجــاوزه الثمانين

رفع رأسه فلقد لسعته نظرة عين مستهزئة تشاركه التطلع إلى آخر صور الملف، حيث كانت "نفرت جاد" فوق صهوة فرسها.

همس ساهماً:

– "عارف"!

– كانت جميلة.

– انت فين؟ انت كنت مسافر؟

– أنا فى البيت من أسبوع كنت مع عمو "عبدالرحمن" دلوقت وقال لى إنه قلقان عليك جداً، قلت أطمئن عليك.

عادت ملامح "عارف" إلى ليونتها، ولكن "تاج" مازالت تلسعه نظرة الاستهزاء التى لاحت لأقل من ثانية على وجه ابنه، ستكبر هذه النظرة مع الوقت وستتحول إلى رغبة عارمة فى التخلص منه كما يريد هو الآن أن يموت "محمد العريان" فى التو واللحظة.

– يعنى "عبدالرحمن" لسه ماشى دلوقتى.

– يا بابا عمو لسه هنا ده حتى اتغدى مع "ماما" و"سلمى" النهارده.

قفز "تاج العريان" متذكراً نشيج أبيه وجلس "عارف" على مكتبه يتفحص ملف "نفرت جاد" من أول صورة.

فى أثناء مروره بالردهة الخافتة الإضاءة المؤدية إلى غرفته، قرر أن يتوقف ليستمع إلى صوت "عبد الرحمن" الهادىء ومخارج ألفاظه الواضحة التى يتكىء عليها...

نعم عليك أن تعيش يا "باشا" عليك أن تلتحق بأحد مرافق التجميد المتخصصة، ولكننى مع الأسف قرأت أنهم لا يقبلون إلا المتوفين قانونياً، عندما يتوقف القلب يبدأ الفريق المختص بإمداد المخ بما يكفيه من الأكسجين والدم للحفاظ على أقل وظائف ممكنة حتى ينقل الشخص إلى مرفق الدعم، ويحاط الجسم بالثلج ويحقن بالهيبارين لمنع التجلط خلال

الرحلة، لا تجزع يا "باشا" فالأمر لا يتمثل في وضع الجسم في وعاء ضخم مليء بسائل النتروجين، لأن الماء في الخلايا قد يتجمد، فإذا تجمد الماء يتمدد وتتحطم الخلايا، وإنما يبدأ الفريق الطبي بإزالة الماء من الخلايا ويضع بدلا منه خليطاً كيميائيا قائماً على الجليسرول، وهو نوع من موانع التجمد، والهدف منع الأعضاء والنسيج من تكوين بلورات ثلج عند درجات الحرارة بالغة الانخفاض وهذه العملية تضع الخلايا في وضع تعليق الإحياء ثم يبدأ تبريد الجسم حتى ١٣٥ درجة مئوية تحت الصفر. ثم يوضع الجسم في حاوية توضع في خزان معدني مليء بسائل النتروجين، عند درجة ١٩٦ مئوية تحت الصفر، ويتم حفظ الجسم ، لن تتكلف عملية التجميد المؤقت هذه سوى ٤٠٠ ألف دولار، وإذا كنت تريد التوفير يا"باشا" فاجعلهم يقومون بعملية حفظ مخك فقط على أمل أن تتطور تقنية الاستنساخ لإعادة بناء بقية جسمك، ولن تدفع إلا ٢٠٠ ألف دولار. أؤكد لك يا "باشا" أنه تم حفظ العشرات في مرافق التجميد حتى الآن. نعم. لم يتم إعادة أى واحد منهم إلى الحياة بعد، لأنه توجد مشكلة صغيرة جداً تتمثل في أن عملية التدفئة إذا لم تتم بالسرعة الصحيحة بالضبط فإن الخلايا قد تتحول إلى ثلج وتتحطم، ولكنني.. لماذا أثق من أنك ستعود يا "باشا"؟ تمسكك بالحياة سينجح العملية. على كل حال علماء التجميد يتوقعون أن العودة للحياة من التجميد المؤقت سوف تحدث عام ٢٠٤٠ تقريبا وهو زمن ليس بالبعيد يا "باشا"، نعم عليك أن تعيش يا "باشا"، فأنت لم تجب عن مئات الأسئلة التي طرحت عليك طوال نصف القرن، وأنت لم تحقق بعد نصف ما وعدت، وأنت حتى لست تدرى ما فعلت.

كلما اعتلت مجموعة من البشر، ذروة الدَرَج تحاول القضاء على من يحاولون الصعود خلفها حتى لا يزاحموها فوق القمة أو يزعجوها من القاع.

عبد الرحمن الكاشف

(٨)

تمعن في وجهه بنظرة طويلة باردة:

– أنت ما نمتش كويس يا "عارف"

أراد "عارف" أن يخبر الدكتور "عبدالرحمن" بأنه بالفعل أصبح مثل الدولفين لا ينام مطلقاً، أو أن نصف مخه ينام والآخر يبقى يقظاً في انتظار قتيلة تنام على صدره وتمنحه من صنوف الحب ما لم يخطر على بال بشر، ما لم ير مثله على شاشة السينما ولم يطالعه في أية قصة حب، ولا يستطيع الخلاص منه، ولا يستطيع أن يجهر به لأحد، فالجهر به لا يعنى إلا أنه هو القاتل.

اكتفى بان تمتم وهو يهز رأسه يأساً:

– أنا ما بانامشي خالص يا "عمو"

همهم "عبد الرحمن" بصوته الساخر الحنون:

– آه حب، وحاجات من دي؟

– أنا عارف بقى؟

– ما أنا عارف إنك "عارف"

وضحك ضحكته الحادة المجلجلة، كانا يتجهان إلى ميدان الجيـــزة حيث ترك "عارف" سيارته، وعليه الآن أن يعيد الدكتور إلى عيادته لأن سيارته في الصيانة، لم يقل له شيئاً، لم يستطع أن يحكى له قصة كابوســـه، فلقد أصبح يشك الآن فى كونه كابوساً، لا يدرى لماذا أراد التخلص منه بسرعة، ولكن الدكتور "عبدالرحمن" هتف فجأة كطفل نزق:

– "عارف" ماتعزمنى على الغداء.

أجابه "عارف" بدهشة وضيق ونظرة علها تثنيه عن عزمه هنا!!

ولكن الد كتور "عبدالرحمن" جره جراً:

– آه في المطعم ده.

لم يكن مطعماً،كان دكان سمك رائحته زنخة، به ثلاث مناضد فقط لا غير مغطاة بمفارش من المشمع القذر المنقوش بورود زرقـــاء، جلســـا وطلب له "عارف" (بلطي مشوي)، التهمه وهـــو يهش الذبـــاب مـــن حولـــه، وسأل هو بمخارج ألفاظه الواضحة والمميزة:

– فيه شوية جمبري؟

وبرغم انه أراد أن يكون شعبياً إلا ان الواقفين نظروا إليه جميعـــاً فى اللحظة نفسها، يبدو أنه نطق كلمة "جمبري" بلكنة أمريكيـــة، فضـــحك العامل على الأورمة وقال مقلداً راءه في كلمة جمبري:

– لا والله الجمبري خلص، ولم ينس أن يتأمله من نظارتيـــه حـــتى حذائه اللامع، بينما تهتز شفته السفلى السمينة طرباً واستغرابا.

دفع "عارف" الحساب وهو يتحاشى نظرات الـــواقفين العدوانيـــة الساخرة، بينما خرج الدكتور "عبدالرحمن" مفرود الظهر كعادته، رافعاً

رأسه وهو يقول بصوت عال:

– السمك كان لذيذ جداً.. شكراً ياريس. سلام عليكم.

وما أن استدارا حتى هاجمتهما من الخلف عاصفة من الضحك العالي البذيء النبرات.

سارا في ميدان الجيزة، توقف الدكتور مرة أخرى عند عربة أى شيء فيها بجنيه، وكأنه لم يكفه ما حدث في دكان السمك، أخذ يهز رأسه ويبتسم للبائع ويقول:

– ما شاء الله، يا سلام كل حاجة بجنيه بس.. يا سلام..!

نظر إليه الرجل بفتور وغيظ وتنهد بغلظة:

– آه.

انتقى علبة كبريت غطاؤها قذر مسود من كثرة الأيدي التي قلبتها طوال اليوم، وشريط أسبرين، وبكرة خيط بيضاء استحالت إلى لون أشيب فريد، و"عارف" يلكزه:

– يللا يا دكتور.

ولكنه ببطء وهدوء قال له:

– ادفع خمسة جنيه يا "عارف" أنا ما عنديش غير الفيزا كارد.

دفع "عارف"، والبائع الذي يتميز غيظاً قال بنفاد صبر وهو يضرب ذبابة على وجهه:

– خد حاجتين كمان.

أجاب الد كتور "عبد الرحمن" بثقة وأدب زائد

أكبر قدر ممكن من القبح. لا، ووصلت بهم الصفاقة إلى أنهم يغنون بأصواتهم النشاز عن جمالهم وجمال بلادهم، يا أخي أنت فنان ، فتأمل هذه الوجوه المريضة الصفراء أو الزرقاء، تأمل المباني المنفرة القذرة التي لم تدهن ولم تغسل منذ سنوات، تأمل أكوام القمامة التي تحتل كل الشوارع على حد سواء، تأمل الهلاهيل التي تحيط بك من كل جانب، يا أخي مستحيل أن يخرج من كل هذا رمز واحد للجمال، فما بالك بملكة جمال!

تخيل "عارف" تنفيذ الفكرة سينمائياً كنهاية لفيلمه، تتجول الكاميرا بين كل مظاهرالقبح والبلادة، تطوف على النوافذ المفتوحة في بيوت قبيحة التصميم، على الكباري المتربة التي يحتلها المتسولون والباعة الجائلون، وأطفال الشوارع وبأيديهم علب الكُلة، على عذراوات يملأن إشارات المرور وفى أيديهن علب المناديل الورقية وعلى رءوسهن إيشاربات قذرة، على الشباب الواقفين على النواصي، والرجال الواقفين في المقاهي وأيديهم تلعب في أعضائهم التناسلية، ثم تبتعد الكاميرا والأصوات تتداخل.. نحيب امرأة ثكلى.. عراك رجال.. صراخ طفل يولد.. ضحكات مومسات.. أناشيد مدرسية حمقاء.. مقدمات نشرات الأخبار.. موسيقى راقصة، أى خيار هذا يا "نفرت جاد" أن يكون قاتلك كل هؤلاء أو لا يظهر أبداً؟!

ثم هز رأسه طارداً الفكرة كلها وهو يتذكر أن "محمد خان" نفذها في نهاية أحد أفلامه.

فتح باب سيارته وهو لا يصدق أنه نجا بأعجوبة من علقة مؤكدة كان سينالها هو والدكتور "عبد الرحمن" في الميدان الذي يشبه السوق، كان الناس يتطلعون إليهما لبرهة بأعين يطير منها الشرر ثم يصمصون

تبقى من مصانع ومكاتب وفى أثناء الرقص، وعند الـزواج والطـلاق، وعند الولادة والمضاجعة. الناس غير مستريحة يا "عارف" ليس من الفقر والقذارة والزحام فقط.. لا، هناك شيء أعمق من كل ذلك، ربما كـان اختباؤهم خلف حجاب وقفزهم من قطار الزمن قبل ألف عام إلى لحظة مجهولة لا يريحهم تماماً.. ربما كان اختيارهم للكسل والعمل مـن أجـل الموت وتسليمهم بأنهم سيعيشون حيـاة أفضـل في الجنـة لا يـريحهم تماماًعندما أسافر إلى أمريكا وأعود أشعر أنني لا اركب طائرة وإنما عربة زمن تعود بي أكثر من عشرة قرون إلى الوراء دفعة واحدة.

ثم ارتفع صوته غاضباً وبدا وكأنه يخطب فوق منبر، وبـدأ النـاس يتطلعون إليه وكأنه مجنون:

– ميدان الجيزة هذا.. منذ عشرات السنين لم تفلح حكومة.. أيـة حكومة في تنظيمه، لم يلق فيه شخص ما نافورة تهديء من غيظ الناس، لم ينحت فيه فنان تمثالاً بديعاً يجعل الناس تخجل من أسمالهـا وقـذارتها، ثم هؤلاء الناس الذين يسيرون مفرشحين على غير هدى يأكلون ويشربون ويتناكحون ويتخيلون أنهم يعلمون أولادهم، وهـم أبـداً لا يتوقفـون ليتساءلوا إلى أين هم ذاهبون؟!

فجأة أمسكه من رسغه وقال هامساً

– أنا أعرف من قتل "ميس إيجيبت"

شحب "عارف" تماماً وكأن دماءه كلها هربت منه، مسح حبـات عرق ظلت تهطل في عز الخريف، وفتح عينيه على آخرهما، وتوقف عن السير، بينما استمر الدكتور "عبدالرحمن" يهمس وكأنه بالفعل قد جن:

– قتلها هذا القبح.. انظر حولك.. إن الجميع يتسابقون لتحقيـق

– لا، شكراً.. كفاية كده.. أنا أخدت اللي محتاجه.

نهض الرجل من على فرشته وكأنه سيضربه وفهره آمراً:

– باقي لك اثنين جنيه خد بيهم حاجتين بأقول لك ما فيش فكة.

– طيب ممكن ميه، علشان الأسبرين.

وفتح بالفعل حبتين من شريط الأسبرين وابتلعهما وهو مازال مبتسماً.

قال الرجل بعداء وسخرية:

– مفيش ميه، اشترى قزازة من أى كشك، وبعدين الأسبرين ده خطر.. هيلزق في معدتك ويموتك.

ضحك الدكتور "عبد الرحمن" بود وهز رأسه موافقاً

– فعلاً.. فعلاً.. كلامك كله صحيح.. ولا الدكاترة وألله.

زفر الرجل بالعدوانية نفسها والغلظة وهو يشيح بيده:

– بلا دكاترة بلا زفت.

ظل "عارف" يتأمل الرجل الغاضب وهو يودعهما بعينين ساخرتين ويبصق بغل خلفهما، بينما خلع الدكتور "عبد الرحمن" معطفه الخريفي، ووضعه على ذراعه، ثم وضع يديه في جيبى بنطلونه وسبقه بخطوات وهو يصفر وكأنه فتى في الثامنة عشرة من عمره وقال بعد فترة بهدوء وهو يتأمل كلماته كما لو كان يجيب عن سؤال طالب في إحدى محاضراته

– الناس يا "عارف" تكاد أن تضرب بعضها البعض في الشوارع، وخلف عجلات القيادة، وفى الحافلات، وعند مداخل البيوت، وفيما

بشفاههم وهم يرددون

– اللهم اخزيك يا شيطان ، ثم يواصلون السير.

انطلق بسيارته وقال وهو لا يزال يفكر في نجاتهما:

– يعنى يا "عمو" الشعب هو اللي عمل في نفسه كده؟ يعنى هو عاجبه اللي هو فيه؟

أمسك "عبد الرحمن" رسغه من جديد بقوة هذه المرة مما أجبره على التوقف إلى جانب الطريق.. بينما ظل الدكتور يصرخ في وجهه وينظر إليه بيأس وكأنه فقد الأمل كلياً: هو ده يا "عارف" هو ده اللي مخلينا قاعدين نتفرج على العالم.. هو ده.. طريقة الكلام دي، إيه السبب ومين كان السبب؟

ويبدو أن صوته تعب من الصراخ، فترك ذراعه وأسند رأسه إلى الكرسي وتهيأ للنوم، واصل "عارف" قيادته وهو يستمع إلى صوته الهامس الحزين:

– لم تخرج "لوسى" من بطن أمها عاهرة، ومصر لم تولد من بطن التاريخ دولة متخلفة ، كانت أم الحضارات وبداية البدايات، نعم كل الناس – إذا أحببت أن تفكر بهذه الطريقة – ساهموا في تخلفها ابتداء بالهكسوس ومروراً بالمماليك والعثمانيين. وانتهاء بتعلم العسكر قيادة البلاد ، ولكن ما الذي يعنيه هذا.. هه.. هراء ، أنت تقول هراء، هراء لا يعنى أحدا سماعه ستتحمل "لوسى" كونها عاهرة، وسنتحمل نحن كوننا متخلفين

نظر إليه "عارف" فوجده يغالب النعاس، أخذ يسلى نفسه بإيجاد صفة للدكتور "عبد الرحمن" وابتسم حين وجدها فأخذ يتمتم: طفل

عجوز.. يا له من طفل عجوز! انتفض وهو يهتف به.

– "عارف" أنا مش ها روح العيادة النهارده، خدني أشوف "تـــاج" وبعدين السواق بتاعه يوصلني بالليل.

– والله يا "عمو" أنا كان عندي ميعاد الأول مع "عمر الجوهري"

– "عمر الجوهري" يا سلام.. كويس، أنا كمان عايز أشوف النطع ده.. ها روح معاك.

أخذ "عارف" يضحك بصوت عال، بينما سقطت رأس الـــدكتور فوراً على المسند ونام كطفل أنهكه اللعب.

زادت عصبية وحدة "عمر الجوهري" كثيراً بعد أن خرج من تحت سيطرة "تاج العريان" اكتسبت ملامحه في الآونة الأخيرة ملامح كلـــب جائع اكتشف حفرة ممتلئة بالجيف، ولا يجد طريقة للنزول إليها، فظـــل ينبح ويدور حول ذيله.

بصوت مبحوح وفاتر رد على تحية الدكتور "عبد الرحمن" المرحـــة، وبنظرة شماتة لم يستطع "عارف تاج" الوصول لأسبابها أخبره بأنه يخاف أن يموت ابن الدائخة "أحمد عواد" من التعذيب بدون أن يعترف بقتـــل "ميس إيجيبت"، أما العاهرة أمها فالدكتور "عبد الرحمن" يعرف انها أقنعت نفسها أن تعيش فقط لكي تنتقم من قاتل ابنتها، وابن الكلب عشـــيقها "أيمن بركات" برأته النيابة كما عرفت.. هاتجنن يا "عارف" كان نفســـي أطلع عين أمهم الاثنين.

استرجع "عارف" ملامح "أحمد عواد" الرقيقة وطوله الفارع وسمرته المحببة وسنينه العشرين، وقال بصوت كما لو كان يحلم:

– أنا أصدقه، هذا شاب محب وليس هو القاتل، وأنت تعرف هذا يا "عمر"

قهقه "عمر" بصوته المبحوح:

– أنا.. أنا آمين يا حبيبي، وبعدين عارف واللا مش عارف، فيه يسا بنى أكثر من خمسة وسبعين مليون عايزين قاتل لـ" ميس إيجيبت"، وفيه صفحة حوادث في عشرات الجرائد والمجلات ها يفضلوا يلتوا ويعجنوا ويسبوا دين أم الداخلية ويطلعونا ما بنعرفش نشتغل، إيه أنت فاكر العملية سهلة كده!؟

قال "عارف بنفاد صبر ويأس وهو يشيح بيده:

– بس مش بالتعذيب، ده احنا في القرن الحادي والعشرين.

– يا سلام أمال بإيه يا فنان؟ أقوله اعترف يا أسطى "أحمد" انت كنت فين وقت وقوع الجريمة؟ يقول لي: كنت تحت شباك "ليلى طوسون" بيحب يعنى، أقول له طيب روح على بيتك يا روميو يا حبيبي.

– لا.. طبعاً، لكن لازم تتطور إمكانيات البوليس وأداوات بحثه مع تطور الجريمة، يا أخي ده المجرمين بيستفيدوا من أخطائهم وبيطوروا أنفسهم من جريمة لأخرى ، ولازم انت تكون أعلى منهم ،ثم انت بتقدر تعذب إنسان إزاى يا "عمر" حتى لو كان هو ده القاتل أنا مستغرب فعلاً؟ إزاى أنت بتتحمل ده؟

– لا لحظة يا "عارف" "عمر الجوهري" يؤدى عمله.

وتنحنح الدكتور " عبد الرحمن" وكأنه سيحاضر من جديد وقال بصوت متألم:

– كلنا مؤهلون أن نكون مثله إذا عملنا ضباط مباحث، إنها طبيعة البشر يا"عارف" هل تعلم ان عالم النفس "ستانلي ميلجرام" قام باختبار طريف للغاية في هذا الصدد، فلقد اختار مجموعة من الرجال العاديين قسمهم إلى فريقين ووضع بينهم زجاجا عازلا، وطلب من الفريق الأول أن يضغط على مفاتيح تحت أيديهم تحدث صدمات كهربائية إذا ما سألوا الفريق الثاني أسئلة ولم يستطيعوا الإجابة عنها. وأعطاهم أسئلة وحذرهم من أن زيادة الفولت في حالة تكرار خطأ الفريق الثاني وعدم تمكنه من التوصل لأجوبة يمكنها أن تقتله، ولكنه طمأنهم، بأنهم حتى إذا قتلوا الفريق الثاني كله فلن يتحملوا أية مسؤولية جنائية، هل تعرف ماذا كانت نتيجة بحثه يا "عارف"؟ لقد وصل ٦٥% من رجال الفريق الأول إلى قتل الفريق الثاني صعقاً بالكهرباء لأنهم ضمنوا – على ما يبدو – النجاة من العقوبة الجنائية.

ونهض الدكتور "عبد الرحمن" وقال بصوت مرح:

– الحمد لله ان "ستانلي ميلجرام" لم يكن جاداً في إيصال الكهرباء بالمفاتيح، أروح أنا الحمام بقي.

وما أن استدار معطياً ظهره لهما حتى ابتسم "عمر الجوهري لـ"عارف" متهكماً وأدار يده بالقرب من أذنه علامة على جنون الدكتور، ما من شك في أن الدكتور "عبد الرحمن" رآه من ظهره، فالتفت إليه وكأنه يسأل طالباً في صفه:

– ولكن هل تجد يا "عمر" بعد فترة من تعذيبك لأحدهم لذة جنسية ما؟!

وهز رأسه بحيرة وأضاف بصوت متعب:

– إن مقدار هذه اللذة هو ما يجب أن يتوصل إليه الطب النفسي الآن.

ثم قال بصوت آمر وهو يفتح الباب:

– ها نمشي بقى يا "عارف"، أكيد الحمامات هنا قذرة.

تركوا "عمر الجوهري" والسؤال يفتح عينيه دهشة ويرخى شفته السفلى ببلاهة.

وعندما رن محمول "عارف تاج" على سلم مبنى المباحث قال له الدكتور "عبد الرحمن" وهو يبتسم:

– النطع فاق دلوقتى.. هايقولك مش عايز يشوفني تانى.

أجاب "عارف" بآلية وهو يبتسم بدوره ويحاول ألا ينفجر ضاحكاً:

– طيب يا "عمر" طيب.. خلاص يا رجل، والله ما يقصد ده.. قلت لك طيب.

صفر الدكتور "عبد الرحمن" وكأنه أنهى عملاً مهماً وتأبط ذراع "عارف" وهو يقول بدهشة حقيقية:

– شفت قفاه طويل إزاى!

وبينما يقهقه "عارف" بصوت عال، والناس تلتفت إليهما من كل ناحية، أضاف الدكتور "عبد الرحمن" بصوت هامس وكأنه يحدث نفسه:

– ما يحيرني فعلاً هو لماذا تحب بنت صغيرة جميلة رجلاً كهذا وتكاد تنتحر من هجره لها؟

غامت عيناه في عينيها اللوزيتين وشعرها المموج الكثيف الذي غطى

نصف جدار غرفته، كاد يجهش بالبكاء وهو يضع يده على رأسه من صداع كأنه ناتج عن مطاردة أغنية واحدة له بإلحاح طوال الوقت... لا خلاص لي إذن؟ ستظل تطاردني ليلاً ونهاراً، وسأفترض أنني قاتلها كي لا أجن، وسأفترض أن الحفرة التي ألقوها فيها عارية إلا من كفنها باتت خالية، وأنها خدعت الجميع وسكنت غرفتي ورأسي. سأفترض أنها شاردة من جحيم ما أو فردوس ما إلى حين، وبلا شك ستعود في يوم ما إلى أحدهما لأستريح، ألا يشبه هذا كارثة الحب الحقيقي الذي يولد في لحظة ويحتضر في سنين؟! عليّ إذن أن أعترف بأنني لا أتذكر أين كنت يوم الإثنين بعد الساعة الثامنة وحتى صباح يوم الثلاثاء، عليّ أن أحكي للدكتور "عبد الرحمن" عن كابوس أو ما شابه ذلك يزداد مشهد جديد عليه كل يوم، تؤكد صحته تحقيقات "عمر الجوهري" ببساطة، على الاعتراف بأنني القاتل.

استعاد هذيان "عمر الجوهري" وهو يجز على أسنانه.. أمها العاهرة تدور الآن في شارع الهرم بملابسها الرثة السوداء، زادت الهالات السوداء حول عينيها كثيراً، تأكل كسرة خبز وتتجول هنا وهناك كالمتسولين، تفزع الناس في جلساتهم، فيحوقلون ويحمدون الله على ثبات عقولهم، لاشيء يتغير في تفاصيل يومها منذ ارتكاب الجريمة وحتى الآن، لا زوار، لا اتصالات، ولا خيط واحد يجعلنا نصل لأي شيء، رمت تليفونها المحمول في الشارع وعندما أعاده لها الجيران تركته كقطعة خردة في المنزل لا تستخدمه على الإطلاق، ولا تفتح الكوافير حتى بعد إعطاء الأوامر بإزالة الشمع الأحمر عنه... كان لدينا أمل أن يجعلنا فتحه من جديد نتوصل لشيء، تنام على سجادة خلف باب شقتها مباشرة، لتصحو مشعثة الشعر تواصل تجوالها في الشارع، يقول صديقك المخبول دكتور المجانين إن هذه أفضل حالة نفسية يمكنها الوصول إليها الآن، حتى

"نهلة" الخادمة الصغيرة التي كان من الممكن أن تكون الشاهدة الوحيدة – بنت العاهرة – لم تقرر أن تمنح نفسها لعامل المقلة المجاورة إلا في هذه الليلة، وكأن كل الدنيا تريد إخفاء قاتلها يا "عارف" حتى طقس يوم الإثنين هذا الذي هاجم الناس منذ السادسة بيوم شتوي شديد الصقيع في عز الخريف، فهربوا بملابسهم الخفيفة ولاذوا ببيوتهم وأغلقوا الأبواب الزجاجية لمتاجرهم، هل سمعت أبداً أن شارع الهرم تخفت فيه الحركة فجأة ويختفي منه الجميع لفترة تقارب الليلة... لا راقصات، ولا سياس للكباريهات والكازينوهات، ولا عساكر أمن مركزي، ولا سيارات مارة، ولا عمال تراحيل، ولا ممسوسين، ولا متسولين، ولا أجانب، ولا خرتية؟

وأنا ما الذي على تصديقه الآن يا "نفرت جاد" ما الذي على عمله؟ هل أطير بك مثلاً إلى الهند وأحط في مدينة بومباي ثم أقذفك في بئر حجري هذا الذي تسميه طائفة "البارسيز" – أبراج الصمت، فتأكلك النسور والغربان وتتخلص روحك بذلك من جسدك الجميل فأطير بها لتظل معي إلى الأبد؟!

أغلق عليها حجرته وهي تتطلع إليه بدلال وفتور، وذهب ليبحث عن الدكتور "عبد الرحمن" وعن أبيه، وجد أمه وأخته غارقتين في الضحك بصوت عال، كانتا تتأملان صورة كبيرة طبعتها "سلمى" من ذاكرة كاميرا الدكتور "عبد الرحمن"، فتح عارف عينيه على اتساعهما وهو يتساءل متى التقط له الدكتور هذه الصورة؟ لقد كان معه ثانية بثانية، تماماً كما كان.. يجلس على كرسي صغير فوق عربته الخشبية، واضعاً ساقا على ساق، ويده تلعب في أظافر قدمه غير المقلمة السوداء القذرة، ولكن جذعه مفرود، وملامحه متهكمة ساخرة ساخطة في آن واحد، وعلى وجهه تقطيبة ملك لا يعجبه أداء رعيته، عمامة رأسه البيضاء المتسخة تعطى إيحاء بأنها تاج ما، أنفه الكبير يكاد يتجه للسماء،

وعيناه تلمعان بقدر هائل من العدوانية والكراهية.

لم يبتسم حتى على تعليق الدكتور عبد الرحمن المكتوب أسفل الصورة:

حزر من أي عصر هذا الملك؟. كان هو نفسه بائع أي حاجة بجنيه.

دخل حجرة مكتب أبيه عله يجدهما، لا يوجد على مكتبه إلا القصاصات التي قطعتها "نفرت جاد" من الصحف.. قرأ عن ظهور نتيجة مسابقة "ملكة جمال الإبل" المقامة في حفر الباطن بالسعودية والتي شارك فيها عشرات من أصحاب الإبل أملاً في أن تكون ناقتهم هي الأجمل، وقد فازت بها ذات السيقان الطويلة الملفوفة المدملجة الرائعة، والعنق الرشيق.. الناقة "نور"

وقرأ عن مشاركة ملكات الجمال على مدى عدة سنين فائتة في زيارات لبيوت المسنين والمعاقين ذهنياً والمكفوفين، وتأمل صور احتفالاتهن بتدشين مساهماتهن في الأبحاث الخاصة لمواجهة الإيدز والسرطان.

مرت عيناه على قصاصة تذكر بأن مسابقة ملكة الجمال أنشأها "اريك مورلى" عام ١٩٥١ للدعاية لمهرجان كان يعقد بهدف دفع الكآبة التى أصابت الشعب الإنجليزى بسبب حياة التقشف التى عاشها بعد الحرب العالمية الثانية،كاد أن يلمح أصابعها التى قصت وقلبت القصاصات مراراً، وحدق فى عينيها اللوزيتين المندهشتين وهى تقرأ تحقيقاً عن إلى متى ستستمر مسابقات ملكات الجمال؟ وهل سيأتى وقت تتوقف فيه؟ وصفها البعض بأنها سوق للجنس والآخر بأنها سوق للحيوانات. كان التحقيق ينتهى عند سرد محاولة عقد المسابقة فى نيجيريا عام ٢٠٠٣، وقيام ضجة هائلة ومظاهرات أسفرت عن مقتل أكثر من مائتى

شخص مما اضطر اللجنة المنظمة للمسابقة لنقلها إلى لندن مسقط رأس المسابقة، حرصاً على سلامة المتسابقات الجميلات ودرءاً لإراقة الدماء.

تأمل بعض الكتيبات سيئة الطباعة والتجليد، صاخبة الألوان، وابتسم... "تاج العريان" لا يقرأ في الآونة الأخيرة إلا كتباً على شاكلة.. "أمل جديد لمرضى الضعف الجنسي"، "ثورة في علم الذكورة"، "اقض على عجزك بكبسولة واحدة"، "الطب البديل والعجز الجنسي" ظل يبحث عنهما لا يدرى لماذا، وتوقف مندهشاً وهو يرى أباه واقفاً فى الدهليز الخافت الإضاءة يتلصص على حجرة جده، ولكنه لم يستطع منع نفسه من الاقتراب بحذر منه ليشاركه الاستماع إلى صوت الدكتور "عبدالرحمن" الهادىء واثق النبرات:

– لماذا أنت غاضب يا "باشا"؟ ألا تحب الحوار؟ لماذا ترد على دائماً بالسباب والطرد يا "باشا" أنا فقط أسألك.. لماذا لم ترجعوا إلى ثكناتكم العسكرية بعد الثورة؟ تاركين السلطة لأصحابها الحقيقيين من قوى الشعب، أنتم لصوص يا "باشا"، لقد سرقتم البلد في يوم وليلة وكان يجدر بكم تسليمه إلى أصحابه، هل رأيتم وقتها أنهم مثلا مجرد حفاة أغبياء لن يستطيعوا إدارة البلاد؟! انظر إلينا الآن يا "باشا" لقد صرنا أقل علماً وفنا وحضارة ونظافة وأشد فقرا، وما كنتم تودون القضاء عليه، ها نحن نرزح تحته من جديد، لا تمت الآن يا" باشا" قبل أن تحقق نصف أهدافك الستة، لا تمت الآن يا "باشا"، لا تمت حتى تخبرنا كيف يمكننا التخلص من عشرات الملوك، لا من ملك واحد.

"تاج العريان" مشغول بنشيج أبيه وهو يصرخ بحروفه الممضوغة:

– صاحبك الوسخ يا "تاج" الحافي ابن الحافية، لولا الثورة لا كان اتعلم ولا بقى دكتور، صاحبك أبو مناخير يا "تاج" هايموتنى، اقبض عليه

يا مرة، ده جاسوس لإسرائيل وأمريكا.

يزم "تاج" شفتيه يأساً وينظر حوله، يحمد الله أنه لم تدخل ممرضة ولا خادمة، يخبره بصوت متعب بأن رمضان على الأبواب، وأنه سينهى إجراءات سفر الحاجة "كمالة" وستسافر معها هذا العام "نسل شاه" وستقيمان في الأراضي المقدسة حتى الحج - إن شاء الله، ثم أضاف بصوت عال أن الحاجة كمالة ستزوره في الأيام القليلة المقبلة لتسلم عليه قبل سفرها.

انبسطت أسارير "محمد العريان" وسقطت رأسه على صدره، وراح في غفوة من غفواته، وانتظمت أنفاسه المتحشرجة المحملة بنهنهة رضيع.

قدر الملك أن يتحول تدريجياً إلى حوت أبيض ليس له أعداء علـــى الإطلاق حيث تخافه كل الحيوانات البحرية حتى الحيتان القاتلة الأخرى.

تاج العريان

(٩)

الآن يرى أمامه المياه الزرقاء والأفق المفتوح على الـ "مالا نهاية"، منذ قليل تخلص تماماً من مشاعر فأر تسلل من مركب المحروسة، وأعطى قائده التمام بأن تفتيش المركب قد انتهى، وها هو يقف على رصيف رأس التين يتأمل الملك ببزته البحرية البيضاء وقامته المهيبة، ما الذي جعل بدنه يقشعر برغم أن الملك لم يعد ملكا، سار أمام قرقول الشرف، والبيرق يتم تنكيسه ببطء من الصاري، تقدم إليه حاملاً البيرق فأخذه الملك ووضعه مطوياً على ذراعه، والتقت أعينهم لثوان فابتلع نظرة ازدراء ذى الجسد الضخم حتى أخذ صوت المركب يعلو على صوت السلام الوطني، كادت دموعه تطفر من عينيه وهو يستمع إلى موسيقى "فيردى"، هيء له أنه يستمع لسلام بلاده لأول مرة، لم يتصور أبداً إنه إلى هذا الحد رائع ويكاد لا ينتهي، ظل يتابع المركب وهو يصغر شيئا فشيئا حتى ابتلعته المياه الزرقاء ، ما الذي جعل عينيه تدمعان قليلاً؟ ويعود وهو يجر قدميه جراً، لقد كان يكره هذا الملك ويؤمن بأن "فاروق" هذا خورجي ونسوانجي ومن أعوان الاستعمار وأنه حامى حمى الفساد، تحسس جيبه ليهديء من مشاعره، ربت على صورة من الإنذار الذي اصطحبه "الملك" بلا شك معه، كان ينتظر إجازته بفارغ الصبر ليطلع

أباه "العريان" عليه.. من الفريق أركان حرب "محمد نجيب" باسم ضباط الجيش ورجاله إلى جلالة الملك:

((انه نظراً لما لاقته البلاد في العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لإرادة الشعب، حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته، وقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم في هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون في ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والإسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير، ولقد تجلت آية ذلك في حرب فلسطين وما تبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر، مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة في العدالة وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى فأثرى من أثرى وفجر من فجر ، وكيف لا والناس على دين ملوكهم ، لذلك فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولى عهدكم الأمير "أحمد فؤاد" على أن يتم ذلك في موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم السبت الموافق ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ والرابع من ذي القعدة سنة ١٣٧١ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه، والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج)).

يعرف أنه لم يمت بعد وأن العصاتين العاريتين أمامه هما ما كانا تسميان ساقاه، وأن هذا المسخ السمين الذي يملأ ربع فراغ غرفته هو ابنه "تاج"، وان رائحة بول الأطفال وبرازهم وعرقهم الخالي من الأطعمة هي رائحته التي فشلت جميع المعطرات التي ترشها "نسل شاه" في

التخلص منها، وأن الوجوه الحمراء العجوز التي تلتف حول سريره هي وجوه الباشاوات الحقيقيين أبناء وأحفاد عائلة الأباظية الذين ظل ابنه "تاج" يصادقهم طوال سنوات دون رغبته.

نحا بضعف وبيد ميتة تقريباً يد الممرضة، واصطاد من أعين زواره سؤالاً.. كيف مازال هذا الرجل يعيش حتى الآن؟!

أراد أن يصرخ فجأة، فخرج صوته متحشرجاً متداخلة مخارج ألفاظه، ولأنه فقد سمعه منذ فترة، أتى صراخه عالياً كنهيق حمار تعثرت قدمه، وبالطبع لم يستطع فهم كلماته إلا "تاج العريان":

– يا للا يا ولد أنت وهو.. يا للا يا حافى يا بن الحافية.

لم يستطع "تاج" منعهم من زيارته قالوا:

– ده واجب يا باشا ،حد ليه في نفسه حاجة، يا عالم هاتكون نهايتنا إزاى؟!

أوصلهم إلى الباب وهو يعتذر لهم عن حالة الباشا الكبير وهم يكررون جملتهم نفسها، كان جسمه قد ثقل تماماً ، شعر بأنه لا يقوى على العودة إلى قصره مرة أخرى، لماذا هو متأكد هكذا من أنه سوف يموت قبل أبيه وأن أباه هذا سيعيش إلى الأبد؟!

هز رأسه رداً على تحية سائقه، ولا يدرى لماذا جلس متثاقلا بدون أن يشعر في السيارة.. انتبه أخيراً بعد ما سأله السائق مراراً:

– أمر الباشا.. تحت أمرك يا افندم.. على فين يا "باشا"؟

لا يوجد مكان يمكنه الذهاب إليه سوى عيادة الدكتور "عبدالرحمن" فنطق باسمه وراح في سبات، رأى أباه يسقط من مكان عال، ممتلئا بحبال

كثيرة متشابكة، كما لو كان يلعب عليها.. وكأنه مثلاً لاعب سيرك، ثم أنه عندما سقط، كان تحته وعاء به زيت يغلى ويتصاعد منه بخار كثيف، ولكن أباه خرج من هذا الوعاء سليماً وهو يضحك وينفض عن ملابسه قطرات الزيت ويقفز كبهلوان، جسده صغير كما هو عليه الآن ولكنه بكامل صحته ولياقته كصبي في العاشرة، ثم إن طيوراً عملاقة تشبه كثيراً طائر الرخ الذي رآه في الموسوعات المصورة، أخذت تحلق في فضاء المكان، وتتمايل بريش أحمر تتدلى منه شراشيب كثيرة من الساتان الذهبي، وبعد أن صفق لها الجمهور، فتحت مناقيرها الضخمة في اللحظة نفسها، واقتربت من أبيه المسجى على الأرض في المنتصف، وأخذ كل منقار جزءاً منه، حتى صارت أعضاؤه المقطعة مثل ندف قطن تتطاير حول كوكبة الطيور، بينما يمطر السقف دماءه الغزيرة، وفجأة توقفت الموسيقى، فلملمت الطيور أعضاءه، وظلت تدور حوله وهى تهز شراشيب أجنحتها ثم تفرقت واختفت في الفضاء من حيث أتت، فخرج هو من تحتها كالعفريت، وظل يقفز ويرقص حتى وصل إلى مقدمة المكان، وأخرج لسانه الطويل في وجه الجمهور الذي كان يصفق بحرارة، ثم أن رجلاً دخل وفى يده سلسلة بها أسد متوحش، أخذ الرجل يقترب من أبيه ضامر الجسم بينما موسيقى صاخبة ومرعبة تصم الآذان وما أن وصل إلى أبيه الذي مازال واقفاً في مواجهة الجمهور ولسانه متدل منه كمشنوق، حتى أطلق الأسد عليه ، ظل أبوه يجرى ويقفز خوفاً من الأسد ويدور حوله ولكن الأسد تحين الفرصة والتقطه كقطعة لحم صغيرة دون أن يمزقه ودونما دماء مراقة كما توقع الجمهور تأوه الجميع. وهدأت الموسيقى، وأخذ الأسد يدور حول نفسه متباهياً وفجأة استدار معطياً مؤخرته للجمهور، وضرط ضرطة قوية، اندفع على أثرها أبوه طائراً فوق رؤوس الجالسين وهم يقهقهون في بلاهة ويصرخون ويصفقون من

الإعجاب بجنون.

انتفض بشدة على صوت سائقه:

– حمد الله على السلامة يا "باشا".

فكر انه سينقض الآن على "عبد الرحمن" كالمصيبة بدون أن يتذكر حتى استئذانه، وما أدراه أنه في العيادة الآن، ثم لو صعد قد يطرده كالعادة فهو لايقبل أن يزوره أحد حتى لو كان "تاج" بدون تليفون أو تحديد موعد.

خجل أن يتصل به من محموله أمام السائق ليخبره بأنه تحت عيادته، خاف أن يحرجه "عبدالرحمن" برد من ردوده غير المتوقعة، فقال لسائقه:

– زور الحاجة "كمالة "، شوفها عايزة حاجة، واشترى لها شوية فاكهة، وخليك عندها لحد ما اتصل بيك.

تباطأ في الصعود وهو يفكر.. إذا اعتذر "عبد الرحمن" أو أجل صعودي ساعة أو ساعتين حتى يتخلص من إحدى نسائه، سأجلس على المقهى المقابل ثم أتصل بالسائق ليعود بي إلى البيت.

ظل واقفاً أمام المصعد حتى تأكد من مغادرة سائقه، أخرج تليفونه المحمول، ولكنه فجأة تسمر في مكانه... الآن فقط يتذكر أنه لديه ابنة! ظل يردد دون توقف.. سلمى.. وهو يشعر بورطة رجل نبتت له ابنة تحت قدميه وهو سائر في طريقه. خرجت من سيارتها التي صفتها بمهارة أمام مدخل العمارة، ارتفع "البودى ستوميك" وهى تنحني لتلتقط مفاتيح السيارة التي وقعت منها، فظهر جزء كبير من ظهرها، ترتدي سروالها الكتاني الأصفر ساقط الخصر.. كم مرة منعها من ارتداء هذه الملابس؟!

اختفى خلف البارافان الذي يخفى حجرة البواب، أراد أن يكذب

عينيه وهو يتابع شاشة المصعد، ويطلبه للهبوط، لماذا تصعد الآن إلى الدكتور "عبدالرحمن" دون أن تخبر أحدا؟ منذ متى وهى تتردد على عيادته؟! عيادته! بل شقته. هل يعقل هذا؟ هل تكون سلمى ابنته واحدة من نساء "عبد الرحمن"؟ ولم لا؟ أليس ذئباً مفترساً؟ حيواناً؟ ألا يغلق على نسائه الباب في وجوده؟ ألا يتخلص منهن في وجوده؟ ولكن سلمى.. طفلته.. كيف تطورت علاقتها به لحد زيارته في بيته؟! وأين كان هو؟ صعد السلم تاركا المصعد، كان يتصبب عرقاً ، ترتعش يداه غضبا ولا يعرف كيف سيواجه الأمر مع ابنته وصديقه ، لماذا لم يخف من "عبد الرحمن" على ابنته من قبل وهو يعرفه جيداً؟ لماذا تركه يرمح في بيته مثل ثور هائج وهو يحفظ دناءته مع النساء عن ظهر قلب؟

باب العيادة مفتوح. أخذ "تاج" نفساً عميقاً وتنهد قبل أن يدخل عليهما... العيادة صامتة تماماً، حرص على ألا يصدر صوتا من خطواته الثقيلة على الأرض الخشبية. كانا في غرفة الكشف، بابها نصف مغلق، اقترب منهما أكثر وهو يشعر بدمائه تفور في عروقه... جعله هاتف ما يتسمر في مكانه ليستمع بعد لحظات إلى نشيج ابنته، وصوته الهادئ الحنون وكأنه يلقى قصيدة:

– أكم من المكروبين والفقراء والمحرومين والمرضى، ومن ليس لهم مكان في الحياة وليس لهم مخرج منها، هل تعرفين يا سلمى لماذا لاينتحرون؟ على الرغم من أن الانتحار أسهل حل لهم. لقد اكتشفوا عبر آلاف السنين انه حل مستحيل. فأنت ستطلقين على رأسك رصاصة مثلاً وسيسقط جسدك، لا يوجد أسهل من ذلك. ولكن المأساة ستبدأ بعد سقوط الجسد كخرقة، فأنت لن تصدقي أبداً أنك مت، ستظلين باقية فوقه في المكان نفسه تطلقين على رأسك رصاصة ثانية، وثالثة، وهكذا إلى

ما لا نهاية.. سيهيأ لك أنذاك أن الرصاص لم ينفد بعد.. ستطلقين الرصاصة في اللا زمن... في اللا نهاية المرعبة.. إذا كانت هناك ثمة كاميرا تستطيع التقاط صورتك في الأبد، فستلتقطها صورة واحدة.. من شدة وسرعة تكرارها ستكون ثابتة. لا توجد كارثة في الوجود يا "سلمى" تضاهي الصور الثابتة. ستلقين بنفسك مثلاً من فوق برج القاهرة، وسيتمزق جسدك إلى أشلاء صغيرة، ربما، ولكنك لن تصدقي أبداً أنك مت فستظلين هناك للأبد، تصعدين وتلقينه لعدد من المرات لا يمكن حصره حتى بعد آلاف السنين، وبعد أن ينهار البرج، ستكونين أنت الوحيدة التي ترى أسياخه وستكونين أنت الوحيدة المجبرة على الصعود في مصعده السريع للطابق الأخير، لتلمسي صدأ الحديد الذي لم يعد موجوداً على الإطلاق ثم تلقين بنفسك.

وأضاف بضيق:

- وهكذا.

ألقى بسيجارته التي حرقت أصبعه في المطفأة، بلله وهو يغالب ارتعاشه صوته:

- أعلم يا سلمى الجميلة أنه ألم لا يطاق، أعرف أنك في البداية ستشفقين على نفسك، ستشعرين أنك مجرد حشرة حقيرة تخلص منها ابن "الجوهري" واستراح، ستذكرين دائماً سعادتك وهو ممسك بيدك، وكلامه عن رقة صوتك في التليفون، وعن جمالك، ولكن صدقيني يا "سلمى" سينتهي ذلك كله في يوم ما، ستكونين أنت الأفضل والأجمل، ستشف روحك وسيحاط جمالك بهالة مجهولة من النور سيحتار الآخرون من أين تأتيك، سينصهر صوتك في نشيج راق سيؤثر فيما بعد على كل المخلوقات. فالمهزوم في الحب أفضل من المنتصر يا "سلمى"

كان يدور حول كرسيه وكأنه يملى كلماته على طلبته في المدرج، يشعل سجائره ويطفئها بالهدوء نفسه، ولا ينظر على الإطلاق إلى دموع "سلمى" المنهمرة دونما رغبة منها حتى في تجفيفها:

– سنجلس يا "سلمى" بعد سنين من الآن، وسيكون لديك طفل صغير رائع سيدعونني "جدو" فأقبله، وابتسم لك ابتسامة لن يستطيع أحد فهمها سوانا. لا أريد أن أخدعك يا "سلمى" ربما ستحبين رجلاً آخر فيما بعد بالإخلاص والحرقة نفسيهما، وربما لن تستطيعي الحب مرة ثانية، ولكن في هذه الحالة هل تعرفين ماذا سيحدث؟ ستمشين مع "عمر الجوهري" بعد هذه الحياة في طريق مشمس، وسيكفر عن كل الآلام التي سببها لك، ستكونين بعد الحياة مع من تحبين. أنا متأكد من ذلك وأراه كما أرى دموعك الآن.

أخذ نفساً عميقاً، وكأنه عائد من رحلة مرهقة وقال بصوت أبوي آمر:

– فقط عديني الآن بألا تحاولي الاتصال به أبداً، هو بالطبع ولأنه نطع لن يتصل، ولكن إذا حدث واتصل لا تردى عليه.

هزت رأسها عدة مرات ومازالت دموعها تنهمر، بينما جلس هو على كرسيه، وكأنه هرم فجأة هتف بصوت عال نافد الصبر:

– ما تمشى بقى يا "سلمى". أنا رفضت طول عمري أتجوز وأخلف عيال علشان الكلام الفارغ ده، إيه مافيش ورايا إلا "تاج العريان" وعياله؟ ده إيه القرف ده! روحي إعملى أي حاجة مفيدة في حياتك غير الحب والغرام. أقول لك روحي انتحري وخلصيني.

وانفجرت ضحكته الحادة الجلجلة، فضحكت معه "سلمى" ضحكة

باكية، تناولت حقيبتها، ولأول مرة رفعت يدها لتجفف دموعها، دارت حول مكتبه وهى تقول بصوت مبلل بالدموع:

– ها تصل بيك يا "عمو" أول ماأوصل البيت.

نهض من على كرسيه وقبلها على وجنتيها ومسح دموعها ومسد شعرها، كان على "تاج العريان" أن يختبيء في حجرة نومه بسرعة حتى لاتراه وهى خارجة، و"عبد الرحمن" يودعها صائحاً:

– لو ما صورتيش كتاب "إريك فروم" من مكتبة الجامعة صباحاً، وذاكرت اللي قلت لك عليه ، هاقتلك بنفسي.

"تاج العريان" الذي لم يشعر من قبل أنه مجرد جثة مثلما يشعر الآن، وأنه ليس أى جثة و إنما جثة حمار ظل يتفرج على صديقه وهو يقوم بدور أب ابنته أمامه.. لم يكن يدرى أبداً أن ابنته كبرت إلى حد التفكير في الموت عشقا، ولكنه عرف أخيراً لماذا كان يحب "عبدالرحمن" طوال الوقت دون أن يفهمه.

دخل عليه بعد مرور ساعة، و لأن "سلمى" أغلقت خلفها باب العيادة، فقد قفز "عبدالرحمن" من على كرسيه وصرخ مرعوباً:

– يلعن أبوك يا "تاج". انت دخلت هنا إزاى؟

ثم جلس وقال بصوت متعب وهو يغلق أوراقه التي انهمك في كتابتها فور خروج "سلمى":

– عارف يا "تاج" انت بقيت في حياتي زى عفريت العلبة، والمصيبة انى مش عارف أتخلص منك زى ما باتخلص من كل النسوان.

أجاب على تليفونه بصوت فرح:

– حمد الله على السلامة. نامي كويس بقى. ماتنسيش انت عنـــدك شغل بكره.

– لا. لا. نصف قرص بس. باى.

اطمأن "تاج" ان سلمى وصلت إلى البيت، وقرر في تلك اللحظة ألا يصرح بشكره وعرفانه لـــ "عبدالرحمن"، وألا يشير من قريب أو بعيد أنه كان أمامهما طوال الوقت يتنصت على ابنته وصديقه، من أيـــن لـــه أن يبدأ...؟ من شكوكه فيهما؟ من سوء نيته المطلقة وفساد روحه المقيم أمام رجل يخذله كل يوم ويستعصي على الفهم. أفاق على صوته البرم وهـــو يسأله:

– أنت دخلت إزاى فعلاً يا "تاج"؟ انت معاك مفتاح العيادة بتاعتى كمان. طبعاً مش ضابط بوليس.

قال "تاج" وهو يحاول تقليد صوته الساخر:

– والله يا شيخ المفروض أخذ مفتاحك، علشان لما تموت وتروح في داهية، اعرف أدفنك. أنت أهبل يا "عبدو" الباب كان مفتوح.

قال "عبد الرحمن" بشك:

– يمكن.. أنا كان عندي زبونة. وافتكر أنها قفلت الباب بعد مـــا مشيت.

– زبونة الساعة اثنين الظهر، ولا زبونة لحاجات ثانية.

تبددت شكوك "عبد الرحمن" تماماً وقال بصوت حازم مطمئن:

– ابعد عن حياتي الخاصة يا "تاج". مش معقولة أهرب طول عمري من الجواز، وبعدين تيجى أنت تحقق معايا كل يوم والتاني.

– يا حمار أنا قلقان عليك. عاجبك حالتك دى قاعد مرعوب ووحيد زى العرسة في الجحر، أتجوز يا أخي أي واحدة حتى علشان نعرف إنك مت.

أراح "عبد الرحمن" رأسه على مسند كرسيه وقال وكأنه يملى على أحد رسالة ما:

– ستعرف يا "تاج" ستعرف. الحقيقة الوحيدة المؤكدة أن الجثث تتعفن.

ثم نهض فجأة صارخاً:

– يا "تاج" حل عنى بقى. عندي ورقة عمل مفروض اكتبها للمؤتمر بكره.. واليوم كله ضاع عشان...

ابتسم "تاج العريان" بحنان وغمز بعينه وهو يقول ببطء ليغيظه:

– عشان إيه؟ هه... ثم ما تتنيل تكتب، وأنا ها عملك قهوة، واشربها معاك لحد ما ييجى السواق وأمشي على طول.

بدهشة هز "عبدالرحمن" رأسه وهو يقول مبتسماً أيضا:

– الباشا هايعمل قهوة. عجايب.

ثم صاح ليسمعه "تاج" في المطبخ:

– وعلى فكرة يا "تاج" أنا مش موقف عربيات علشان تستنى سواقك عندي.

لم يعلق "تاج" وكأنه لم يسمعه، ظلت يده اليمنى تبحث عن البن والسكر، واليسرى عن اسم "حازم الصفتى" في ذاكرة المحمول، وجده

فطلبه، وأشعل الغاز وقال بصوت منخفض ودود:

– حازم يا واطى، أنت افتكرت انى عشان هاقدم استقالتى خلاص لا هاتخاف منى ولا تسأل عنى.

– طيب اسمع. أنت فين؟.

– كويس قوى، أنا كمان في المهندسين، جنب بيتك انزل قابلني بعد خمس دقائق.

– أمال "باشا" يعنى إيه يا واد. طيب خليها ربع ساعة.

– آه كويس في بيتزاهت. أنا على كل حـــال في جامعـــة الـــدول العربية.

– لا والله يا حازم. خير.

– لا رقبتك إيه يا رجل؟ أنا عاوزك في خدمة أقل من رقبتك بكثير.

فارت أفكاره أكثر من مرة مع القهوة، تساءل منذ متى يلهو "عمر الجوهري" بابنته؟ كان موقنا أنه أغواها لينتقم منه، ظلت تتقافز أمامـــه وجوه "سلمى" و"نسل شاه" و"عارف" و"كمالة" و"أبوه" و"لوسي" آه إنه يشبه "لوسي" هذه التي كانت نائمة على بعد جدار واحد بينما تقتل ابنتها ويمثل القاتل بأعضائها الأنثوية.

الذي لن يعرفه "تاج العريان" ولا أي مخلوق على وجه الأرض أبداً أن "لوسي" لم تكن نائمة في تلك اللحظة، لقد ارتدت قبلها ملابسها وهى على شفا الجنون وقررت أن تخرج لتصرخ في مكان ما دون أن يراهـــا أحد.

فتحت باب الكوافير، وجدت "نهلة" تتحدث في التليفون فزجرتها:

- ارمي الزفت ده.

تمتمت نهلة مرتعبة:

- اطمئن يا مدام، ونامي حضرتك، الست "نفرت" فوق وأنا هـا قفل المحل ونتام حالاً.

تمنت "لوسي" لابنتها الموت وهى تسمع اسمها، و"نهلة" اعتقدت أنها كانت عائدة من الخارج كما قالت في التحقيق بينما كانـت "لوسـي" خارجة.

أخذت فكرة واحدة تصفعها.. أنها عجوز.. هكذا يراهـا "أيمـن بركات" هكذا.. كما كانت ترى الكـثير مـن الرجـال، كانـت في العشرينيات من عمرها لا تكل من تأمل كروشهم المستديرة وتـرهلات لحمهم... أنفاسهم المتحشرجة اللاهثة أكثر ما كان يرعبـها أن يمـوت أحدهم وهو فوقها.. لمعة صلعاتهم، وأيديهم المرتعشة، شـعر صـدرهم الأبيض، تتأوه تحتهم حسب قواعد مهنتها لتشعرهم بفحولتهم وهـم لا يدرون أنها تساعدهم للوصول إلى ذروات خافتة وكريهة حتى تـتخلص منهم بأسرع ما يمكن لتظل رائحتهم الخاصة جداً وكأنها رائحـة سـترة قديمة نسيت فى سندرة مغلقة لسنين تطاردها لأيام. هـي عجـوز الآن. ظلت تصفعها الفكرة ولا بديل أمامها إلا الصراخ فلقد وصـل الأمـر بـ"أيمن بركات" إلى إغلاق تليفونه في وجهها كلما لمح اسمها عليـه أو رقمها بعدما حذف اسمها. لم تعد تدرى. الشارع خـال تماماً ومؤهـل لدخول الشتاء. يمكنها الصراخ الآن.. استدارت بسـيارتها في اتجـاه الأهرامات، عيناها متورمان وحمراوان.. سارت ببطء حذاء الرصيف. يا لها من ليلة! حتى السيارات اختفت من الشارع.

حملقت في وجهه وهو يتطلع إليها بابتسامة بلهاء وعيون ميتة تشبه عيون السمك المجمدة.. كان يفترش الجزيرة الوسطى الخضراء بالشارع.. أمامه عدة عمله.. فأس، قصعة، معاول هدم. تجاوزته ولكنها توقفت وهى تسأل نفسها كيف سمعت كلمته المبحوحة المطوطة الداعية المتسولة الفاجرة التي رنت في سكون الليل كقطعة معدنية ألقيت على أرضية من السيراميك.

– آجى.

عادت بالسيارة إلى الخلف، وبدلاً من رغبتها فى الصراخ ضحكت ساخرة وهى تسأله بصوت عال مهدد:

– تيجى؟ هه؟!

وقف بجلبابه الذي صار بلا لون من كثرة اتساخه، وعلى مصباح الشارع أعطته نحو الثلاثين من العمر، عينان واسعتان ميتتان، كوفية يحيط بها رأسه وعنقه معاً – لاتعرف كيف–، وجه أحالته شمس الهرم إلى خرقة كالحة، جذع مستقيم يكاد الشباب أن يقفز منه.

زم شفتيه على الفور، وهتته بجدية وخوف وتسول:

– يمكن الهانم عايزة تهد حيطة أو بلكونة أو... أو... أى خدمة ياهانم.

استمعت هي نفسها إلى كلماتها باندهاش لم يخف عليه:

– وبتاخد كام لما تهد بلكونة؟

– على حسب البلكونة يا هانم. واللي تأمري بيه. والله أنا ما تعشيت النهارده.

كانت وكأن شخصا ما يضع الكلمات على لسانها:

- الوقت متأخر. لكن ممكن تشوفها دلوقت وبعدين تبقى تقـــدها بكره.

- تحت أمرك يا هانم.

- اركب

وكأنها منومة تنويماً مغناطيسياً، فتحت له باب العمارة ثم باب الشقة وبلا مبالاة أدخلته ، أشارت له إلى البلكونة التي تود في الغد هدها وعمل نافذة بدلاً منها ،وعندما أراد فتحها نهرته قائلة

- بكره. قلت لك بكره.

جلس على الأرض كما أمرته ودخلت إلى المطبخ، ألقت ملابســها على أرضيته وأحضرت طبقاً وضعت فيه كيفما اتفق ومن الثلاجة مباشرة نصف فرخه، أرز، فاصوليا خضراء، وخرجت له عارية تماماً، فغر فــاه فصرخت في وجهه:

- كل.

أشعلت سيجارتها وظلت تتأمله بهدوء وهو يلتهم الطبق وعينه فيــه حتى لايشغله عريها، شرب من دورق الماء مباشرة وظــل ينظــر فيــه، والدقائق تمر عليه بطيئة.. من يدرى من تكون هذه المجنونــة؟ لقــد رأى مسدساً بجوار رف الباب وهو داخل، أتكون زوجة ضابط مثلاً ؟ شــعر أنها تقترب منه فازداد رعباً ولكن عينيه ظلتا في دورق الماء. أمســكت الدورق من يده ووضعته إلى جواره، لكزته في كتفيه بيــديها الاثنــتين فاستلقى مرغما على ظهره، رفعت جلبابه وغطت به رأســه وذراعيــه،

وجلست عليه وهى مازالت ممسكة بطرف الجلباب حتى لا يزيحه عن وجهه.

تململ بالفعل وأراد إزاحته فقالت له هامسة مهددة:

– ولا حركة.

ظلت تمتطيه حتى استطاع سماع رجفتها الممتدة الصاخبة وشعر بهمودها فوقه، أراد أن يتملص منها ليعتليها فأبقته بالهمسة المتعبة نفسها:

– ولا حركة.

شعر أنها أشعلت سيجارتها الثانية، ولكنها ظلت تتأرجح فوقه حتى جعلته ينخر بقوة، سدت فمه بجلبابه حتى خفت صوته تماماً، ونهضت ببطء من فوقه، أنزل جلبابه الملوث، مسح به بلله، واستيقظت عيناه الميتتان، وظلتا تنظران إلى ظهرها العاري، ومؤخرتها وهى ترتج، عادت عارية بثديين متهدلين قليلاً، ألقت في وجهه خمسمائة جنيه، وقالت بنبرات حادة مهددة:

– اعتبر انك هديت البلكونة. انس كل حاجة عن الشقة دى، والعمارة دى، والحته دى كلها.

وسددت إصبعها إلى صدرها وهى تقول بصوت عال:

– وطبعا الست دى.. وإلا.. فاهم. باب العمارة مفتوح، اقفله بعد ما تغور.

فتح فاه لينطق ، فهتفت به

– اخرس

وعندما ظل واقفاً ببلاهة ، وضعت في جيبه نقودها، وأمسكته من جلبابه، كما تمسك فأراً من ذيله، وأخرجته، وصفقت خلفه الباب.

هيء له أن آخر ما سمعه:

– جرب ألا تنسى ما حدث. جرب.

ما لن يعرفه "تاج العريان" ولا "لوسي" ولا أى مخلوق على وجه الأرض أبداً أن الرجل، استسلم لمخاوفه منها فنفذ ما قالته بالحرف الواحد، ركب إلى الفيوم وحدد حركته فيما لا يزيد عن فدان حكم على نفسه حتى نهاية عمره بألا يتجاوزه أبداً، اشترى بنقود تلك الليلة سمكاً من الصيادين وباعه في سوق صغيرة ببلدته، وظل يشترى ويبيع وعيناه ساهمتان في أعين السمك الميتة أمامه، وسره الذي لن يستطيع البوح به لأي مخلوق، السر نفسه الذي جعل "لوسي" تظل تتجول في ملابس سوداء رثة، تتطلع إلى وجوه كل الرجال الجالسين لتأجير عضلاتهم، والباعة الجائلين، والمتسولين، علها تجده بينهم، قاتل ابنتها كما أقنعت نفسها دائماً، على الرغم من أن ساعة الجريمة "العاشرة مساء" كما حددها "عمر الجوهري" كانت قبل وصولها وهذا الرجل إلى البيت، ربما فى اللحظة التى تحولت فيها صرختها إلى ضحكة ساخرة، وربما فى اللحظة التى أزكمت فيها رائحته أنفها عند ركوبه السيارة إلى جوارها، وربما فى لحظة شرودها وسؤالها وعيناها تتأملان شارع الهرم.. لماذا تبدو لها الحياة وكأنها توقفت فجأة؟، هل احتفظت بسرها لكي يظل طيفها يجوب الشارع؟ يجوبه إلى الأبد حتى بعد أن تتغير خريطة شارع الهرم، وبعد ألا يكون للجزيرة الخضراء وجود. سيظل طيفها بتشمم العابرين عله يجد رجلاً له رائحة نجيل مبلول معبق بدخان عادم السيارات.

ولأنك منذور للنور طوح بكل ما تعرف عـــن الظـــلام بعيـــداً
واطرق أحجاراً جديدة واخمش شرارتك.وامضِ .

عارف تاج

(١٠)

يدها التى طمست ما على أيامه من شموس، وما على صحاريه من أنجم، مازالت ترعى فى جسده ولا تتركه إلا أشلاء رجل، فيستجلى دفين أسرارها سراً سراً، ويفض بكارتها بيأس من يريد أن يتطور الوضع أكثر فتتحدث إليه مثلاً، يشبك فخذيها فى ذراعيها ويكورها تحته حتى تجأر بالشكوى ولكنها تخبىء عينيها فى صدره العارى بخجل وتنيخ جمال حضورها على عتباته، فيتبع بوصلة غيابها. استحال "عارف تاج" إلى ما ليس يدرى، وها هى مأخوذة بجنونه وضلوعه التى تنتثر تحتها فتتوكأ عليها كما نصل يبحث عن سيفه، أو كوة فى العراء تبحث عن جدارها، تنفرط ساعاته فى سديم كابوس لا ينقشع فيجأر هو بالشكوى:

من هجرته حبيبته لديه أمل ما.. ومن لم تحبه حبيبته لديه أخريات.. ومن ماتت حبيبته فلديه حفنة ذكريات.. أما أنا فليس لى ملاذ.. قتيلة تجثم على صدرى وتلون أيامى بصمتها الأخاذ ولا أستطيع إلا حبها.

يعرف أن "عمر الجوهرى" يتهرب منه فى الأونة الأخيرة، ويقابله بجفاء إذا ما ألح فى مطاردته، ولكنه ارتدى ملابسه وقرر أن يطلب منه مباشرة ما ظل يلف ويدور حوله لأيام بدون أن يقوى علي مصارحته به.

– يا "عمر" أنا عايز أشوف الكوافير، وشقة "نفرت" و"لوسى" انت عارف يمكن ده يحطنى فى "مود" شغل.

وابتلع ريقه وهو يحاول إخفاء اضطرابه:

– مش قادر أتخيل يعنى إيه باب مقفول بين شقتين فى إحداهما تنام الأم بعمق وفى الأخرى تقتل ابنتها بهدوء بدون صرخة استغاثة واحدة. وبعدين يا "عمر" ده آخر طلب. مش هازعجك تانى إطلاقاً.

نظر إليه "عمر الجوهرى" نظرة فاترة وغمغم من بين أسنانه:

– أنا عارف انك رحت هناك وحاولت تدخل المكان.

ارتفع صوت "عارف" ليخفى خجله:

– آه. لكن لوسى دى حالتها صعبة خالص اللى يشوفها يقول بالتأكيد هى اللى قتلت بنتها. قولى يا "عمر" إنت ليه مصمم إن القاتل رجل؟

قال "عمر" ببطء وازدراء:

– قلت لك قبل كده، لأن الغفير الوحيد اللى كان صاحى فى الشارع.. ثم أضاف متبرماً وكأنه يقرأ الخبر الذى نشر منذ شهرين فى صفحة الحوادث بكل الجرائد:

لمح من خلف زجاج مدخل عمارته المقابلة تماماً للكوافير امرأة منتقبة ترتدى السواد، دخلت وأغلقت خلفها الباب قبل العاشرة بقليل وخرجت بعد حوالى عشرين دقيقة، وكان هذا عادياً بالنسبة له فطوال الوقت تدخل الكوافير منتقبات أو أنصاف عاريات ويخرجن بسرعة أو بعد ساعات، ما أثار انتباهه أنه لمح بنطلوناً رجالياً وحذاء مقاسه لا يقل

عن ٤٦ وهى تصعد إلى مقعد السائق وتختفى هى وسيارتها بسرعة... وخبط بكفه على مكتبه بغيظ.. لكن الحيوان ما يعرفش يفرق بين ماركات السيارات، ناهيك أن هذه السيارة كانت بالطبع بدون نمر.

توقف قليلاً ليشعل سيجارته ثم قال وهو يجز على أسنانه:

– الطب الشرعى، والأدلة والتحريات بتقول إن القاتل يشبهك تماماً، الطول نفسه والعرض وربما الوسامة.

وزفر بضيق ونفاد صبر وهو يتكيء بثقة وانتصار على مخارج ألفاظه:

– نحن نبحث عمن يشبهك يا "عارف"

ثم نهض حاسماً اللقاء: الموضوع ده مش محتاجنى قوى، صاحبكم المجنون دكتور المجانين بيروح هناك بحجة الحقن ومتابعة حالة "لوسنى" وطبعاً العاهرة بتفتح له كل الأبواب.

زحف داخل سيارته زحفاً وسط الزحام، لم يعد يعرف متى يعمل حوالى عشرين مليون قاهرى إذا كانت الشوارع لا تفرغ منهم أبداً، تخيل أن كل واحد منهم يسأل نفسه السؤال نفسه، وكادت تخنقه دموعه.. أين كان في ذلك الإثنين؟ أين كان فى هذا المساء؟ وخز كفيها وورکيها وقدميها لم يزل على جسده، وحرارة شفتيها على رقبته ووجنتيه فمن قتل "ميس إيجيبت" سواه؟! حتى "عمر الجوهرى" يشك فيه.

أراد أن يحرك سيارته للأمام متراً ولكنه كبحها فى التو واللحظة، بينما تخبط على الكبُوت الأمامى فتاة لها نفس شعر نفرت الغجرى، مرت فى ثوان وهى تغمز له بعين فاتنة بشقاوة وانتصار من أحرز سبقاً ما، تابعها عبر الطريق وغرق فى موجة شعرها التى تبتعد.. هل كانت

تعبرالطريق هكذا..؟ هل كانت تلهو مع المارة بابتسامتها المشرقة هكذا..؟ هل كانت ترتدى سروالاً واسعاً أبيض كهذا وبلوزة حمراء مقلمة طولياً بالأبيض وحلقاً كبيراً على شكل هلال وتقطع الطريق هكذا فيتعطل المرور لحظات؟ إذا حدث و استطاع دخول غرفة نومها سيفتح دولابها ليراها فى ملابسها، هو حتى الآن لم يرها إلا عارية كما ولدتها أمها.

رن تليفونه المحمول من جديد، منذ ثلاثة أيام يطلبه "منصور" رئيس شركة إنتاج فيلمه الأول بإلحاح، يستطيع تخمين ماذا يريد، فشهر رمضان على الأبواب، وإحدى النجمات المسنات قررت أن تخرج من عزلتها وحجابها لتقوم ببطولة مسلسل تاريخى دينى، يعلم أنه وفقاً لما قرأه من أخبار سيقابل هناك "ميرنا" التى يتحاشى رؤيتها فى كل الأماكن، ولكنه أمسك تليفونه ورد بحماس:

- إزيك يا منصور.

فما زالت الساعة الحادية عشر صباحاً وأمامه وقت حتى يستيقظ الدكتور "عبد الرحمن" جلس منكمشاً على نفسه فى فوتيه بعيداً عن المائدة المستديرة التى تحلقوا حولها واستمع إلى حماسهم وإعجابهم بورق السيناريو وتحديداً بشخصية "عمر بن عبد العزيز"، وأحلامهم بأن يعيدوا أمجاد الأفلام التاريخية مثل "صلاح الدين الأيوبى" أو "عمر المختار"

تابع انعكاس شفتيه ازدراء على زجاج الباب الفيميه وانتظر أن تعبث "نفرت جاد" بأوراقهم ووجوههم الغبية المتحمسة وشعورهم المستعارة ثم تصفعهم على قفاهم ليصرخ كل منهم وفقاً لبيئته ففيهم على أية حال المكوجى والعاهرة السابقة والخادمة السابقة والمتسول والطباخ

السابق وراقصة الموالد وهى بالذات من ستكون البطلة والملاكم ورافع الأثقال ولاعب الأكروبات ومطرب الدرجة الثالثة فى الأفراح الشعبية وهو بالذات من سيكون البطل، ثم تمنى أن تظهر لهم "نفرت" بعريها وألقها بالضبط وسط المنضدة فيفقدون الوعى جميعاً، بينما يقف هو مبتسماً لها مثل "اسماعيل يس" فى فيلم عفريته هانم أو "رشدى أباظة" فى فيلم "عروس النيل"

توقفت عيناه عدة مرات على "ميرنا"، بينما يتطلع إلى حماسهم باستغراب، ورأى ما كان يخشى أن يراه.. وجها شاحبا.. عينين منطفئتين باكيتين.. شعرها القصير ملموم بدبوس شعر كيفما اتفق وما نفر منه من خصلات كان يتأرجح بأسى على جبينها وفوق أذنيها.. صوتا حالما منكسرا وكلمات قليلة متقشفة إذا وجه لها أحدهم سؤالا.. هذه أجمل مرة يراها فيها، ولكنه فجأة وخزته فكرة أنه سيكون قاتلاً للمرة الثانية لفتاة موهوبة جميلة إذا استمر هجره لها أكثر من ذلك.

ود لو أضاع معهم ساعتين أو ثلاث ساعات حتى يستطيع الاتصال بالدكتور "عبد الرحمن" وزيارته، ولكنه بغل غير مبرر وغضب أنهى اللقاء فى عشر دقائق من الصياح المتواصل.. وهل لابد أن يرتدى الكفار تلك الهلاهيل؟ هل من المنطقى أن يكونوا جميعاً متخلفين إلى هذه الدرجة؟ ألا يوجد فيهم من هو ذكى أو نبيل أو أنيق؟ هل يعقل أن تجار قريش الموسرين كلهم على هذه الدرجة من الوحشية والهمجية والقذارة بينما الجوارى والعبيد يرفلون فى ملابس بيضاء كالملائكة وكلهم على درجة عالية من الجمال؟ نفس الزفت. نفس الأحادية فى التفكير.. كلهم أشرار. هه! والعبيد والجواري كلهم ملائكة. هه! إن نصفهم أسلموا من أجل العتق والحرية هل تعرفون ذلك؟

وطبعاً ستوزعون الأدوار هكذا.. الممثل الوسيم من المسلمين والمشوه القبيح من الكفار، وحتى إذا لم يكن قبيحاً فالماكيير سيقوم بالواجب سيجعل حاجبيه منفوشين كالشيطان ولحيته كالمقشة وعينيه حمراوين وجاحظتين وربما يجعله أبله ويلثغ فى حرف أو أكثر.. والله حرام عليكم.. لماذا تعيدون كل هذا العته الذى قدمته بالفعل الدراما المصرية؟ أنتم بتستغفلوا مين بالضبط؟ لا لا. أنا خارج القرف ده.

انتظرها فى سيارته حتى تخرج معهم والغيظ يكاد أن يفتك به، وما كادت تفتح باب سيارتها وتجلس فيها حتى لحق بها قبل أن تنطلق وهمس بكلمات وكأنه حفظها من كتاب مطالعة: "ميرنا" أنا مريض. أنا بالفعل مريض وتقريباً أشعر أننى قاتل.

انفرجت شفتاها قليلاً ولكنه أغلقها بأصبعه وأمسك بخصلة شعرها القصيرة المتطايرة وقال بحزم: عايز شعرك طويل. طويل جداً، وابعدى عن المسلسل ده، وأعدك ها نعمل حاجة أحسن بكثير من الهبل ده.

واستدار حتى لا يرى فرحة روحها تثب من عينيها الدامعتين فيضعف ويحتضنها وهو يجيب على سؤالها: لا لا. أنا اللى ها اتصل بيك

استمع إلى رائحة النوم فى صوته وهو يصيح مرحباً: يا أهلاً يا أهلاً. طبعاً يا عارف، تعالى وهات لى فطار معاك وأنا ها أصحى وألبس على طول.

ولكنه بدون شك أغلق تليفونه ونام من جديد، وكان على "عارف" أن يواصل الضغط على جرس الباب أكثر من عشر دقائق حتى فتح له ولم يزل مرتدياً بيجامته وصاح وهو يبتسم بخجل:

– يا أخى انت سريع جداً. شباب. بقى.

– يا عمى أنا كلمتك من ساعة

جاءه صوته الضاحك وهو يحلق ذقنه

– "عمر الجوهرى" إيه؟ وزفت إيه. إنت مش عارف المثل اللى بيقول: ما يجيبها إلا نسوانها. دلوقت نروح للست "لوسى" وأديها حقنة، وأنت تلف فى الـ"لوكيشن" بتاعك زى ماانت عاوز، لكن يا "عارف" انت اتقدمت فى كتابة السيناريو.

بالكاد همس "عارف":

– لم أكتب كلمة واحدة.

صاح "عبد الرحمن" وهو يجفف وجهه: ها تكتب بالتأكيد ها تكتب. المشكلة أنك خائف أن تكرر الآخرين أو تكرر نفسك، لكن ثق انك لا يمكن أن تكرر شيئاً أبداً. إن كل شىء منذ الأزل وحتى الآن نسيج وحده، حتى إذا خيل للآخرين انه مشابه لشىء آخر، هل تعرف لماذا؟ لأن الزمن قاسم مضاف إلى كل الأشياء والزمن وفقاً لما اكتشفناه حتى الآن مجرد سهم منطلق فى المالا نهاية، أى أن الزمن + شىء لا يساوى أبداً الزمن + شىء، مع الأسف. يا "عارف" لا توجد فى الحياة متشابهات، ولذا يحب الناس الشعراء لأنهم يكذبون طوال الوقت مشبهين الغدر بطعنة سيف نجلاء، والغدر لا يشبه إلا الغدر وطعنة السيف تشبه نفسها والألم لا يشبه إلا نفسه، بل لا يشبه ألم إنسان ألم إنسان آخر، يحب الناس الشعراء لأنهم يلهونهم عن مأزقهم الوجودى. ثم صرخ فجأة وكأنه "نيوتن" حين اكتشف قانون الجاذبية:

وإذا فرض أن هناك تكرارا ما فالتكرار مهم أيضاً فى بعض الأحيان، عدم وجود ما نظنه تكرارا قد يؤدى إلى رداءة اللوحة التشكيلية أو

المشهد، تخيل يا "عارف" أن الحياة مجرد فيلم.. بدأ منذ الانفجار الكبير ولا يعرف نهايته إلا خالقه.. تخيل أننا جميعاً.. أبطالا وكومبارس.. قتلة ومقتولين.. لصوصا وشرفاء.. مؤمنين وملحدين نسعى فى سباق محموم لتصوير كادرات غامضة لن نفهمها أبداً إلا بعد عمل المونتاج وتجهيز الفيلم للعرض، وحتى تحين تلك اللحظة فنحن مستمرون فى دأب، يوماً بعد يوم، وقرن بعد قرن، وألفية بعد أخرى فى إنجاز ما لسنا ندرى، قد يهيأ لك أحياناً أن هناك تكرارا ما ولكننى أتحداك أن تثبت ذلك ثم انطفأ حماسه تماماً وخفت صوته وهو يسأل بدهشة حقيقية مشوبة بسخرية:

– ألم يكتب شكسبير شيئاً مثل هذا؟

ابتسم "عارف" وهو يغمز بعينه:

– "عمر الجوهرى" بيقول ان "لوسى" بتحبك أو فيه علاقة يعنى.

– اللى مش ممكن ها يفهمه "عمر الجوهرى" إن "لوسى" انتحرت فعلياً قبل ما بنتها تتقتل بكثير، وإن اللى بتتحرك قدامكم دلوقت مجرد جثة خرقاء، و"عمرالجوهرى" ده مجرد ثور ها يفهم الموضوع ده إزاى لكن انت المفروض فنان وعينك مفروض تشوف اللى ما حدش قادر يشوفه.

وهمس بصوت خافت:

– يا "عارف" من هم مثلى ومثل "لوسى" على الرغم من اختلافهم خلصوا حساباتهم مع الجنس والحب والمستقبل والماضى والحاضر وكل الأشياء،وهم يقفون الآن يحملقون وجهاً لوجه فى نهايتهم كل بطريقته.

تأكد "عارف" أن كل الكلمات التى قد ينطق بها لإخراج الدكتور

من الحالة التى وضعه فيها ستبوء بالفشل وخاف أن يغير رأيه فى الذهاب إلى "لوسى" ويفاجئه بإحدى مقولاته التى من أشهرها: ما تسيبنى لوحدى يا "عارف" وحاول أن تحل مشاكلك بنفسك.

ولكنه انتفض فجأة غاضباً:

- ياللا يا كابتن. أنا جاهز.

الطابق الثانى من كوافير "لوسى" ما هو إلا الصالة الكبيرة فى الشقة التى خصصتها "لوسى" لـ "نفرت جاد" بعدما كبرت ولم يعد من المناسب أن ترى ضيوف أمها وهم يستبيحون وضع أيديهم على كل جزء من أجزاء جسدها، فى أقصى يمين هذه الصالة باب يغلق جيداً بمفتاح توجد منه ثلاث نسخ مع "لوسى" و"نفرت" و"نهلة" الخادمة الصغيرة التى تدور منذ الصباح وحتى المساء فى محل الكوافير الرئيسى بالطابق الأول وشقة "لوسى" وشقة "نفرت".. هذا الباب يفتح على ردهة طويلة لم يتبق فيها إلا ثلاث غرف مغلقة وحمام صغير ومطبخ هي التي تعيش فيها "نفرت جاد"، بينما تم استقطاع الحمام الكبير من الشقة ليتحول إلى ما يشبه "الساونا"، وضعت فيه "لوسى" بانيو جاكوزى كبير يسع ثلاث سيدات معاً، ثم غطت جدران الصالة بمرايا عملاقة وكراسى وفوتيهات ونثرت أدوات الكوافير من غاز ومكاوى شعر وسشوارات وحقائب باديكير ومانيكير، وخصصت قسماً للألعاب الرياضية وكتبت أسفل السلم الذى بنته ليصل بين الجزء المهدود من سقف الكوافير وصالة شقة "نفرت" قسم المحجبات.

عندما مر "عارف تاج" على الغرف الثلاث فى الردهة الطويلة داخلاً من باب الشقة الرئيسى لم يشأ أن يتوقف عندها، أراد أن يرى أولاً محل الكوافير الرئيسى، وأن يقف وجهاً لوجه أمام البقعة التى لاقت

فيها حتفها.. فربما تباغته هنا كما ذهبت كاملة العرى والبهاء إلا من قطعة صغيرة من جسدها. تسمر فى مكانه طويلاً.. المسجلة رابضة فى مكانها لا تغنى الآن، وهو لا يسمع إلا أصداء ضحكات مجلجلة وفتيات يعبثن فى الماء، أو يتأوهن عند نزع الشعر الزائد منهن بمعجون السكر والليمون، ونصائح لعروس متوترة، بينما عشرات الأيدى تجهزها لرجل ما، شم رائحة شعر محترق، وعطر بالغ الخطورة هو خليط من أنوثة مكثفة وكل ما يعرفه أنفه من كل أنواع العطور الأنثوية، استطاع أن يحدد وفقاً لوصف "عمر الجوهرى" المكان الذى أرداها فيه القاتل.. هنا كانت ممددة عارية مزينة بمكاوى شعر ساخنة لم يجد لها أى أثر على جسدها الذى داهمه لأكثر من ثلاثة أشهر. وخزه شعور حاد بالذنب لأنه وطئه بقدميه قبل أن يضىء النور ويتأمل المكان.

أصدرت السلالم الحديدية صريراً مزعجا وهو يهبط عليها.. عليها نفسها صعد القاتل ممسكاً بالدرابزين.. هل سمعت "نفرت جاد" هذا الصرير؟ أم أن صوت المسجلة كان أعلى منه؟

أم أنها اعتقدت أن "نهلة" عادت مرة أخرى؟

لم يعد بحاجة الآن إلى إضاءة نور الكهرباء،فضوء الشمس كان يغرق الطابق الأرضى من الكوافير تماماً.. المكان خاو.. حكى له "عمر الجوهرى" أن الكوافير أصبح ملعوناً بعد الحادث لا تطأه قدم امرأة، ولكنه أنيق ونظيف جداً، لم ينتبه إلى وجودها فى البداية فانتفض وهو يجيب على تساؤلها:

– أنا صديق الدكتور "عبد الرحمن" هو مع مدام "لوسى" فوق، وأنا باتفرج على المكان، بالتأكيد أنت "نهلة".

وكأنها لم تتكلم منذ ثلاثة أشهر لم تتوقف عن إطلاق الكلمات والتنهدات ومسح دموعها التى تهطل بمقدرة تحسد عليها.. بنت لم تتخط السادسة عشرة ولكنها تتكلم كامرأة تخطت السبعين عاماً، أخذ يلتقط من بين شفتيها جملاً مثل:-

- يا حبة عينى راحت فى عز شبابها.

- لو شفتها يا أستاذ كنت تقول دى بنت موت.

- حتى عاملات الكوافير والزباين ماكنوش بيقدروا يرفعوا عينيهم من عليها.

- يا حول الله كانت زى الملاك اللى نزل يزور الدنيا وجربها شوية وقرف منها بسرعة فطلع مكانه تانى.

ترتدى السواد من أخمص قدميها وحتى حجابها الأسود المغطى بترتر وخرج نجف، لا يخفى على أى عين أنها وضعت مكياجاً ثقيلاً ولكنه ذكى فى الوقت نفسه فليس فيه ألوان فاقعة، اعتمدت فقط على الكحل والماسكرا اللذين لا يسيلان مع الدموع وعلى البودرة الملونة بلون وردى خفيف، ولكن أيضاً لا يخفى أيضاً على أى قلب أن حزنها حقيقي حتى أنه ينعكس على جدران المكان، شرب القهوة التى أعدتها له على عجل، وهو يفكر..كم من الوقت سيسمح له الدكتور عبد الرحمن بالبقاء فى المكان؟ وفجأة ركز معها بجميع حواسه.. تأمل عينيها الضيقتين المنحرفتين لأعلى قليلاً وكأنها من أصل صينى سرعان ما يكذبه أنفها الأفطس وشفتاها المكتنزتان الافريقيتان.

أخذت تسر له بصوت هامس. أنها ذهبت مع مدام "لوسى" فى اليوم السابق للجريمة إلى الشيخ "فلفل" فى بلدها بالمنيا ليعمل لها عملاً

يجعل "أيمن بركات" يحبها ويتزوجها، كانت قد حكت لها أن.. أمها لما أحبت أباها كان يحب بنتاً من بنات أحد أعيان البلد، فزارت هذا الشيخ قبل فرح أبيها بيومين على عروسه، أمها لم تكن تعتقد فى هذه الأشياء ولكنها ذهبت لأن زواجه من غيرها وهى تحبه هكذا لدرجة العبادة والجنون جعل الحياة والموت عندها شيئا واحدا، وفى يوم زفافه وبعد أن نامت البلد ودخل هو بعروسه، ترك فجأة الطست الذى يستحم فيه وجرى فى البلد عارياً كما ولدته أمه، حتى وصل إلى بيت أمها، فستره جدها بملاءة وما كادت الشمس تشرق حتى كان كبار البلد يحيطون بالبيت، ولكنه قال.. أنا يا قاتل أو مقتول، وأصر ألا ينتقل من البيت قبل أن يأتى المأذون ليطلقه من البنت التى أحبها ويزوجه من أمها، وضحكت "نهلة" بصوت عال ووجنتاها مبللتان بالدموع:

– وفضلت أمى طول عمرها تقوله فى كل خناقة "الله يلعن اليوم اللى جريت فيه فى الغيطان عريان، ويقطع الشيخ "فلفل" والله خسارة فيك العشرة جنيه اللى دفعتها له علشان تتجوزنى"

حاول أن يشاركها حتى بابتسامة فلم يستطع، كان كل يوم يتعاطف أكثر مع كره "عمر الجوهرى" لـ "لوسى"، ويزداد استغرابه من تعاطف الدكتور "عبدالرحمن" مع الجميع الظالم والمظلوم.. القاتل والقتيل.. العاهرة والقديسة، الضابط والمجرم، قال لأبيه، "تاج العريان" ذات يوم وهو يلقى بفوطته على السفرة صارخاً:

– ولماذا تحتقر المجرمين هكذا يا "تاج"؟ هه! ألست تأكل عيشاً من مطاردتهم؟ أنت مثير حقاً للضحك لأنك طالما لا تحترم خصمك لن تستطيع التغلب عليه، اعتبرها لعبة شطرنج يا أخى واحترم ذكاء خصمك، هل تعرف لماذا ينتصر عليك المجرم؟ لأنه يخاف منك ويحترمك

ويقدر خطواتك التافهة فيسبقها، بينما تفكر أنت طوال الوقت فى كيفية جديدة لازدرائه وتعذيبه والحط من شأنه والتنكيل الدائم به. ثم إنه يؤدى الدور الذى خلق ليؤديه يا "تاج" فلماذا لا تؤدى أنت دورك أيضاً بنفس الإخلاص والجدية. أم أن ذكاءك يسر لك أنه إذا لم يكن هناك مجرمون ستعيش أنت كلواء عاطل عن العمل يستجم على حافة حوض السباحة فى قصره.. لن يكون ساعتها هناك قصر يا "تاج" أو حوض سباحة.. لن تكون هناك ساعتها الحياة نفسها. عليك أن تحاول تطوير أدائك كضابط، وأن يحاول المجرم تطوير أدائه كمجرم حتى ننتقل إلى مرحلة أعلى.. حتى نصل إلى تحقيق نهاية لا نستطيع تخمين شكلها ولسنا ندرى على أية حال ما الهدف منها.

عادة ما يخفت صوته ويمتليء بما يشبه الدموع بعد أن يصرخ هكذا كلما أخرجه أحد عن هدوئه، ويهرب على الفور من المكان.

ازداد صرير السلم الحديدى تحت ثقله وثقل "نهلة" التى تقوده إلى شقة "نفرت"، اجتازا الصالة مرة أخرى ولم يلتفت إلى المكان الذى أشارت إليه وهى تنهنه فلقد تعرف عليه من قبل، دلفا من الباب الفاصل بين الطابق الثانى فى الكوافير وردهة شقتها الطويلة، ظل يتتبع رائحة أنفاسها طويلاً هذه المرة، وحاول اصطياد حركة ظلها الذى تتركه عادة على سريره، فتح باب الحمام الصغير، لم يكن به سوى دش تحته بانيو قديم لا يزيد عن نصف المتر، كانت "نفرت" إذن تستخدم طوال الوقت البانيو الكبير المخصص للكوافير، أو الحمام الكبير فى شقة "لوسى"، ولكن "نهلة" أكدت له أنها مذ دخلت الجامعة لا تذهب إلى هناك أبداً وإنما مدام "لوسى" هى التى تفتح هذا الباب لتطمئن عليها من وقت لآخر أو تجلس فى هذه الحجرة معها.. أشبه بحجرة معيشة بها تليفزيون ضخم

وفيديو وجهاز DVD وريسيفر وجهاز تسجيل كبير ومكتبة بطول الحائط تحتوى ذلك كله بالإضافة إلى أعداد كثيرة من مجلات الموضة والفنون وأخبار النجوم وبعض كتب الأبراج وكثير من الكتب غير ذات القيمة.

حاول أن يحثها أن تسرع ليدخل حجرة نومها، بينما أخذت هى تثرثر بلا توقف.. كانت تحب أن تجلس على هذه الكنبة وفى يدها كل الريموتات.. كانت تحب أن تسجل بعض الأفلام الأجنبية وتشاهدها بعد ذلك مرات عديدة.. كانت تتكلم قليلاً حتى أن اليوم قد يمر عليك بدون أن تسمع صوتها.. كانت تأتى لنا بالجديد فى وصفات علاج الشعر المتساقط والثعلبة وآخر صيحات الموضة فى المكياج والقصات الجديدة، وما هى آخر صيحة فى ألوان المانيكير وأحدث رسومات الوشم، كانت تتفرج على بعض البرامج أو تقرأ ثم تكتب فى هذه الأجنده وتنصحنا أن نتعلم الجديد فى التجميل.. كانت تمر علينا فى الكوافير وتتأمل وجه العروس ثم تنادى أحد الصنايعية وتهمس له شارحة كيف يصغر أنفها بالمكياج أو كيف يوسع عينيها أو ماذا يفعل لتطويل رقبتها إذا كانت قصيرة جداً ورأسها ملتصق بكتفيها أو كيف يكبر شفتيها إذا كانت بلا شفاه وكيف يصغر فمها إذا كان كبيراً وكيف يصنع رموشاً لمن لا رموش لها وكيف يستخدم الفرشاة لتكبير ذقن الزبونة إذا كان صغيراً أو تصغير ذقنها إذا كان طويلاً.. كانت تنفر من التعامل مع الراقصات وعاملات البارات الزبائن الدائمات للكوافير ولكنها إذا طلبت منها إحداهن شيئاً كانت تبتسم بأدب وهى تقول لها:

– حالاً الأسطى ها يخلص المدام ويمسكك.، وإذا ما ألحت كانت "نفرت" تنبهها إلى أن ميعاد شغلها الذى لا يبدأ قبل منتصف الليل لم يحن

بعد على أية حال... كانت ترتدى ملابس عادية قديمة وتلم شعرها الجميل وتحاول ألا تكون أجمل من كل الزبائن أو العروس وتنزل لتساعد الصنايعية إذا كان هناك ضغط شغل خاصة فى الأعياد أو عند خروج أكثر من عروس.

دلف إلى حجرة نومها وحده متعمداً إرسال "نهلة" لتعد له قهوة أخرى، وكأنه دخل حجرة طفلة ممتلئة بالعرائس والدببة القطنية وألعاب أطفال، انتفض من بينها فجأة قط ضخم، أخذ يموء وينظر إليه بعينين حزينتين، استغرق دقائق لكى يدرك أنه قط حقيقى، فلقد تفننت "نفرت" فى صباغة شعره بألوان صاخبة متنافرة ومتناسقة فى الوقت نفسه، حرك ذيله البنفسجى، وتمطى، ثم أغلق عينيه وكأنه دمية واختفى بين الدببة القطنية من جديد، فتح خزانة ملابسها وفاجأته الملابس نفسها التى رآها ترتديها.. لم يشاهد لها صورة من قبل وهى ترتدى مثلاً بذلة مزركشة برسوم ذهبية تشبه بذلة جارية أيام الخلافة العباسية. أو مئزراً يشبه ماكانت ترتديه حواء قبل اختراع الملابس، فتح فاه مندهشاً وهو يقلب بين يديه فستاناً أبيض شفافا مشقوقا من الأمام من أعلى فخذيها وحتى القدمين ومزخرفاً بأغصان ذهبية وأوراق لوتس، بدون شك سيجد فى مكان ما هنا إذا ما بحث جيداً الخلاخيل الفضية التى كانت تلبسها معه، والأساور التى تلتف حول ذراعيها على شكل ثعابين.

متى عرف "نفرت جاد" ومتى شاهدها وهى ترتدى هذه الملابس؟ وكيف لايتذكر سوى أنه قاتلها؟

استيقظ على صوت "نهلة" وكأنها كانت تقول.. كانت تحب أن تشترى ملابس غريبة وتقف بالساعات أمام المرآة تتأمل نفسها.

هز رأسه وهو يتمتم دونما خوف هذه المرة

أعلم هذا جيداً.

كانت الغرفة الثالثة لا أهمية لها على الاطلاق.. يبدو أن بها كراتين تحوى أجهزة جديدة لم تفتح بعد.. ربما كانت ما اشترته "لوسى" لتجهيز ابنتها الوحيدة، ثمن أن بها ثلاجة والأخرى غسالة أطباق وأخرى بوتجاز عملاق، وغسالة ملابس ثم كراتين كثيرة متناثرة ومغلقة على ما ليس يدرى.

عادا إلى حجرة المعيشة التى بها باب يصل هذه الشقة بشقة "لوسى"، حاول السيطرة على لجام أفكاره وهو يحفظ مداخل ومخارج البيت الذى كانت تعيش فيه وكأنه متاهة مفتوحة على زوار أمها وزبائن وعاملى الكوافير، اختفى فيها وإلى الأبد قاتلها.

فتحت "نهلة" الباب الذى كان مواربا بعد أن طرقته، فوجد نفسه فى مساحة شاسعة مفروشة بموكيليا تصلح للوضع فى قصر.. ذوق رفيع نثر أنتريهات أمريكية الصنع وصالونات فرنسية مذهبة، وكراسى هزازة مختلفة التصميمات والألوان، جلست على أحدها "لوسى" كما تجلس حشية من القطن، بعينين زائغتين، وشعر وكأنه فجأة فقس أبيضه بكثافة وتدلى على كتفيها ببلاهة، رمقته بنظرة هى نفسها التى رمقته بها عندما ظن أنها تستمع إليه وهو يطلب منها القاء نظرة على المكان منذ شهر، فصفقت الباب فى منتصف جملته فى وجهه ودخلت.. إنه يستطيع الآن أن يصفها فهى ليست نظرة كره أو حزن أو غضب أو جنون أو بله أو ازدراء أو لا مبالاة أو حتى نظرة فارغة، أنها ببساطة نظرة عين اقتطعت بالفعل من جثة ما، خلفها شاشة عملاقة مثل التى توضع فى قاعات دور السينما الصغيرة، نفس الفازات والأباجورات والتماثيل الذهبية

والجرانيتية حاملة المشاعل التى فى قاعات استقبال قصر "العريان" الـذى يعيش فيه، تساءل: متى اخترعت البشرية مهنة مهندس الـديكور هـذه لكى يلغى شخصية المكان وتصبح النقود هى صاحبة الشخصية الرئيسية، فيصير بيت ضابط الشرطة مثل بيت الداعرة مثل بيت الفنان مثل بيـت تاجر المخدرات؟ لم يستطع التاريخ أن يسعفه.. هل كانت بيوت الأغنياء فى الماضى متشابهة إلى هذا الحد رغم اختلاف مهنهم وشخصياتهم؟ ولكنه ضبط نفسه وهو يغبط القيصر الذى سمل عين من صمم له "الكـرملين" والملك العاشق "شاه جيهان" الذى قتل من صمم له "تاج محل" ليحـوى رفات محبوبته.. أوانى للحلوى ومطافىء سجائر من الفضة والكريسـتال. اصطدمت عيناه بالجدار فأوقفتهما "نفرت جاد" من تجوالهمـا بضـحكة خلابة لايدرى على ماذا كانت تضحك وهى قتيلة هكذا ومحبوسـة فى إطار مذهب كبير طوله متران وعرضه مترا

تريد الحضارة أية حضارة تصديق أن مسيرة الانسانية مجرد سهم منطلق فى الزمن .. فقط حتى تطمئن روحها

عبد الرحمن الكاشف

(١١)

مازالت العيون التى حررها من العدم تحوم حوله.. عيون تحدق فى قطعة من الجحيم، وعيون فاجرة جشعة لن يطفىء ظمأها للحياة ملايين السنين.. عيون تعاتبه لأسره لها وتقف بالضبط فوق أنفه ولا يستطيع هشها وعيون تزمجر أمام عينيه وتنتظر فرصة ليغفل حتى تنقض عليه.. عيون استراحت من الحياة وظلت ساكنة فوق كتفيه فى دعة تتفرج عليه وهو يغوص فى ثنيات لحمه المتزايدة يوماً بعد يوم وعيون تستمع بذهوله وهو يبحلق فى رعب الحقيقة وجهاً لوجه.. عيون لأطفال صغار تعبث بحيرته أمام اطمئنانها المطلق وعيون شبعت من الحياة لدرجة أنها احتضنت قاتلها بحنو بالغ فى بؤبؤها، ظل يتأمل عين "نفرت جاد" المعلقة إلى الأبد على سرها، بينما يفكر فى اضطراره لدعوة "عبد الرحمن" على الإفطار فى منزل "آل الجوهرى" أخذ يقلب الأمر فى رأسه ويحاول ترجيح اتخاذ أحد القرارين، وكطبيعة رجل من برج الميزان أخذ يردد..... ولكنه لم يجتمع بالدكتور "عبد الرحمن" فى جلسة إلا وانتهت بكارثة، ابتسم وهو يتذكرأنه كان سبباً فى قطع علاقته برئيس تحرير صحيفة "أبو الهول"

فكالعادة ولجاذبيته الشديدة أخذ يحاوره "البرعى حمدان" ويقربه إليه وبدأت الأمسية باستمتاع "عبد الرحمن" وتألقه لكن سرعان ما فتر

حماسه، ومثل طفل قرران يقلب القطار الذى يلعب به على الأرض لينام.. رد على سؤال "البرعى" حول ما إذا كان قد قرأ مقاله اليوم بحكاية تركه لسيارته بجوار رصيف فى شارع ما لا يتذكر أين يوجد الآن، قال.. توقفت فى منتصف الطريق لبيتك لأرد على تليفون "تاج العريان" واندمجت فى حفظ الشوارع التى علي دخولها وهو يصفها لى، وفجأة نظرت فى المرآة الأمامية فرأيت رجلاً يبول على شجرة بجوارى بينما تستند مؤخرته على مؤخرة سيارتى، ولغبائى أضأت أنوار السيارة الأمامية، ويبدو أن الرجل فزع فاستدار وهو مازال يبول، وعندما اطمأن إلى أنه غسل مساحة لا بأس بها من السيارة أغلق بهدوء سوسته بنطلونه وسار فى طريقه، وتركنى أغلى من الغيظ فنزلت منها وأقسمت ألا أركبها إلا بعد أن يغسلها شخص ما وهى فى مكانها.

لم تتسع عينا "البرعى حمدان" و"تاج العريان" فقط، بل ظل كل الحضور يحملقون فى وجه "عبد الرحمن" الغاضب المشمئز لأكثر من دقيقة وهم صامتون تماماً، بينما ينظرهو بكراهية شديدة لـ"البرعى" وكأنه هو الرجل الذى بال على سيارته، وكالعادة قطع هو نفسه الصمت أخيراً وقال من بين أسنانه:

– يا أستاذ "البرعى" إنت فاكر كم واحد بيقرأ نصف صفحة جرنال ببنط صغير كل يوم لحضرتك؟ انت فاكر مين يهمه أن يعرف رأى سيادتك فى مشكلة أفغانستان مثلاً؟ وكل واحد من الشعب يعرف معلومات عنها مساوية لما تعلم وإذا أعطيته عموداً صغيراً.. ربما يكتب تحليلاً أعمق مما تكتبه.

تململ الحضور وأخذ كل منهم يحاول تمثيل الانشغال عن الاستماع إليه، واحتقن وجه "البرعى" وتلون بألوان الطيف، بينما يواصل "عبدالرحمن" بهدوء وغيظ وسرعة:

– ياأخى اللى ماشفت صحفى فى البلد دى بيحاول يساهم فى تربية هذا الشعب وتشكيل وجدانه، ياأخى لماذا لا تكتب عموداً يومياً صغيراً.. بعنوان عزيزى المواطن تتناول فيه كل يوم موضوعاً جديداً فتكتب مثلاً.. عزيزى المواطن لا تطرطر على سيارات الآخرين، وضحك وكأنه مجنون يمثل على خشبة مسرح لكراسٍ شاغرة، وأضاف.. خاصة سيارة الدكتور "عبد الرحمن" أو عزيزتى المواطنة استحمى قبل ذهابك إلى العمل، أو عزيزى المواطن لا تلعب فى أعضائك التناسلية فى المقاهى وعلى النواصى، أو عزيزتى المواطنة انظرى إلى نفسك فى المرآة بعد ارتدائك بعض الهلاهيل أو عزيزى المواطن لا تلعب بأصبعك فى أنفك لتخرج ما فيه وتلصقه على أبواب الحمامات العامة وكراسى المواصلات العامة وأنتريهات من تزورهم وملابسك أنت شخصياً أو أعزائى المواطنون لا تنهقوا بصوت عال وأنتم تتحدثون لأن أنكر الأصوات عند الله هو صوت الحمير... وهكذا، وابتسم كالعادة بخجل من انتصر بالصدفة وأمسك بيد "تاج العريان" وهو ينهض كما ينهض طفل أمه وهو يقول بصوت فزع.. آه والله يا "تاج" الرجل طرطر على.

أراد "تاج" أن يستأذن أو يعتذر ولكن "البرعى" أشاح بوجهه، بينما لا يكف "عبدالرحمن" عن ترديده لجملة واحدة:

– يعنى إيه يا "تاج" مش ها توصلنى للبيت؟! بمجرد أن جلسا فى مقعد السيارة الخلفى وتفوه "تاج العريان" صارخاً بـ... والله ده حرام يا "عبده أنت.. حتى انفجر الاثنان فى ضحك متواصل إلى أن وصلا المهندسين بدون كلمة واحدة، والسائق يهز رأسه مبتسماً ومندهشاً فى الوقت ذاته.

ضحك بصوت عال وكأنه مازال فى السيارة مع "عبدالرحمن" وقرر

ضرورة دعوته فهو يحتاج إلى أن ينتقم من "الجوهرى " بكارثة مشابهة... يحتاج إلى أن يرى رد فعل "عبد الرحمن" فى بيت "الجوهرى" فى اللحظة نفسها ليس قبل ذلك، وليس بعده.

دخل وهو يحاول أن يكف عن ضحكه إلى غرفة أبيه.. "العريان" لم يمت بعد، ولعله يسبح الآن فى مياه آسنة ليجهز على من رآهم أعداء له أو مخالفين لمعتقداته.. المخذولين المدحورين الذين ساهم فى اعتقالهم أو ساهم فى تعذيبهم بعنف فى سجونهم أو ساهم فى إرسالهم إلى مستشفى العباسية للصحة النفسية، يلملم "تاج" الكلمات من فمه الذى يلوك شيئاً ما وهمياً، فيكتشف أنه يتحدث عن استعداد الجيش للعبور لأنه يستشعر اختلاف مواقيت الطعام فى البيت طوال شهر رمضان، أرسل ممرضته إلى الخارج وجلس يتأمله طويلاً.. أصبح من الصعب تحديد ما إذا كان مستيقظ أم نائما، لم تعد هناك حدود بين المسميات لدى "العريان.. الموت والحياة، الصحو والنوم، الماضى والمستقبل، الحرب فى سبيل تحرير الوطن من الأعداء والحرب فى سبيل تحرير الوطن من المواطن. فهنه وكأنه يتخلص من كابوس ما ولملم "تاج" من خلال رذاذ لعابه:

– قل لصاحبك الوسخ يا "تاج" إن مصر كانت لمدة يومين كاملين[٢] بدون رئيس أو حكومة أو جيش أو بوليس، ولم يكن فيها مسئول فى موقعه للدفاع عن أي شيء، أو اتخاذ أي قرار، قل له إن البلد كلها كانت منهارة حكاماً ومحكومين فلماذا لم يقفز أى "عنترة" مثله ويستولى على السلطة ويتولى الحكم ثم يذهب إلى ماسبيرو ويذيع البيان الأول مثلما فعلنا، قل لصاحبك الوسخ يا "تاج" اللى مش مصدق انها ثورة أن هذين اليومين يعطيانها وإلى الأبد شرعيتها.

اقترب منه "تاج" أكثر غير مصدق قدرته على الاسترسال فى طرح

فكرة بهذه الدقة، بينما يخلط أحياناً بينه الآن وبينه عندما كان طفلاً أو بينه وبين "نسل شاه" أو بين "عارف" و"سلمى"، وربما كان الوحيد الذى نجا من هذا المصير هو الدكتور "عبدالرحمن" الذى لا يلتبس فى ذهنه أبداً بشخص آخر.

– قل لصاحبك أبو مناخير يا "تاج" أن الثورة منحته الاستقلال الوطنى والمد القومى والسد العالى والتنمية وكسر احتكار السلاح وباندونج و العدالة الاجتماعية، قل للحاف ابن الحافية لو لم نكن هناك ماكان هو موجوداً الآن.

صاح "تاج" بصوت عال. حتى يسمعه ويقف عن استرساله لأنه سينتقل حتماً إلى سبه الآن:

– يا"باشا" باقى على العيد ثلاثة أيام، والحاجة "كمالة" اتصلت من السعودية وبتسلم عليك هى و"نسل شاه"، هانت يا "باشا" كلها شهرين ويكونوا هنا.

"العريان" لم يمت بعد، وأمام عينيه تمر الآن دونما شك جنازير دبابات مصفحة، ورجال يسدون عين الشمس الحارقة وأفق صحراء سيناء، قطعت أعضاء بعضهم، وأكلت الرمال بعضهم، وجن بعضهم، وشهد بعضهم خيانة زوجته له، وتفرغ بعضهم لحصد النياشين وسرد قصة حياته فى الفضائيات... فكر "تاج العريان" وهو ينهض متثاقلاً بعد أن سقط رأس أبيه على صدره لا يعرف موتاً أم نوماً.. ليس فى ذاكرته شيئ ناصع سوى الحرب.. هل جميع من حاربوا مثله لا يتذكرون سواها؟ هل الحرب لا تعنى إلا الماضى؟! وهو.. هل ترك لحمه يتكاثر هكذا حتى يتقاعد ويستريح تماماً من الحاضر مثل أبيه؟!

تجاهل تحية سلمى فى الدهليز ناظرًا إلى الأرض، فلقد عاهد نفسه أنه لن ينظر مباشرة فى عينيها ويصفعها على وجهها قبل أن ينتقم لها ولنفسه، ملأ نصف الكنبة الخلفية لسيارته الـ "BMW "

وظل يطارد أفكاره طوال طريقه إلى دكتور "عبد الرحمن"، عليه أن يمر فى البداية على "تريانون" "فحازم الصفتى" ينتظره هناك منذ عشرين دقيقة.. دمعت عيناه وهى تتأمل فى المرآة لغده الذى يتدلى أكثر يوماً بعد يوم وعلى أنوار لمبات الكبارى الخافتة ازداد اختناقه.. كم أحب القاهرة بفوضاها وقسوتها بضوئها الصاخب وسكونها فى الشتاء البارد! كم أحب ناسها الذين يهيمون منذ مطلع الشمس وحتى غروبها فى أضخم عرض تاريخى للأزياء يمتد عمقه إلى خمسة عشر قرناً فتسير العباءة إلى جوار "البودى ستوميك" والنقاب إلى جوار البنطلون ساقط الوسط، والحجاب إلى جوار صدر يسبح فى شيفون عمل فيه مقص "شانيل"، والعمامة إلى جوار أحدث قصات الشعر وأحدث ألوان صبغاته.. يحب شكل الباعة الجائلين أمام الفنادق السبع نجوم، وكم ابتسم لعربة كارو يجرها حمار ويعتليها هيكل بشرى يرتدى أسمالا ويحاول أن يسابق مرسيدس من أحدث طراز.. يحب مآذنها المتلألئة و صلبانها التى تقطع فضاء الكبارى والطرق السريعة، والأسواق المزدحمة التى تبيع وتشترى ما لا يخطر على بال بشر، على أنغام مزيج عجيب من السيمفونية الخامسة لبيتهوفن المستخدمة كموسيقى تصويرية لأحد الأفلام الأبيض والأسود و "شيال الحمول يا صغير.. شيال الحمول"[٣].. الأصوات العالية وحماس الأجساد التى تشع ناراً لا تعى بعد ما الذى عليها طهيه بها، القبلات المسروقة.. أيدى الذكور وهى تخمش أجساد النساء فى الزحام، وتواطؤ الجميع على ألا يكون هناك أسرار وألا يزيح الجديد القديم بأية حال من الأحوال،..

الصراخ الفجائى، والضرب العفوى، وسيل الشتائم الذى لن تستطيع فنون الأدب المعاصر ملاحقة مجازاته.. حفظ شوارعها شارعاً شارعاً عن ظهر قلب، وصلى فى جوامعها وزواياها جامعاً جامعاً وزاوية بعد أخرى فى معظم الأحيان لوجه الله، وأحياناً لكى يصطاد مجرماً من هناك أو ليكون فى معية صديق أو قريب فى صلاته.. ابتسم كثيراً للحفاة وهم على أبوابها يبحثون عن مقاسهم فى أحذية المصلين ليسرقوه.. وفتح رئتيه عن أخرهما أمام نيلها يعب من هواء له مذاق حلو ملوث بالطمى والغبار، ضاجع فى أزقتها عاهرات شعبيات منحنه بضعة ليال من ألف ليلة وليلة وحمى كنائسها من الذقون المسعورة، يعرف كل بار من باراتها وكل أثر من آثارها وكم ربت على جدران بيوتها القديمة التى دخلها مقتحماً لمطاردة المجرمين وهو يدعو لها بطول العمر ويعرف أنها تقف على بركة من أثار أجداده تعود لآلاف السنين وفى مواجهة إعلانات النيون الماجنة..كم وقف فى مداخل لوكاندات عتبتها الرخيصة التى تعج بآلاف القوادين والمومسات والنصابين والمسجلين خطرا ومرضى أقاليم الصعيد، والذين غالباً ما تنتهى قصص حيواتهم على مكتبه ومن مكتبه لصفحات الحوادث.. ينتظر رجاله الذين أرسلهم للقبض على أحدهم بينما يستمع إلى تداخل جمل الوعاظ الغاضبة مع التأوهات الأيروتيكية للمغنيات الجدد، كم جلس على مقاه فى مناطق هربت من كل تصنيفات علماء الاجتماع وظلت مغلقة على خصوصية لا يستطيع أحد وصفها، وراهن نفسه مراراً وهو يتابع جموعها أن يستطيع تحديد من منهم أمين الشرطة ومن البلطجى.. من الطالب ومن تاجر المخدرات.. من المطرب ومن الواعظ.

قال له "حازم الصفتى" بعد أن أعطاه التمام بأن كل شىء جاهز يا افندم.. إنه مشفق على "عمر الجوهرى" الذى غرق هذه الأيام تماماً فى

السعى خلف تحقيقات القسم الجنائى والنتيجة الصادمة التى توصلوا إليها بأن قاتلها مأجور، تجده طوال الوقت جالساً على قائم كفتى ميزان هل ينسب القضية إلى المشعوذين أم الارهابيين؟ قالوا.. ان الأعضاء التناسلية يجب أن تتوفر للمشعوذين لتكتمل طقوس فتح المقابر الفرعونية، و"عمر الجوهرى" يتتبع الآن.. على باب أية مقبرة مؤهلة للنهب يمكنه إيجاد مشفرى عضوها؟ إنه أيضاً يطارد وحش الإرهاب الإلكترونى الموزع على آلاف المواقع بشبكة الانترنت، يتتبع موقعاً اليوم فيختفى ويظهر غداً بشكل جديد وعنوان جديد، يصرخ ويخبط الحائط بكفه:

– أولاد العاهرة يعطون أوامر التنفيذ لبعضهم البعض فى غرف الدردشة الإلكترونية، وعلى رأى "تاج العريان".. تف على قبرى لو عرفت تنفيذ الحكم فيها انتقل بأية كلمات أو أرقام أو حتى نكت جنسية وممن إلى من.

هز "تاج" رأسه وحرك شفتيه بلا صوت.. لقد نسى "سلمى" تماماً، إنه لا يعلم حتى أنها كانت على وشك الانتحار، هل اعتبرها مثلاً حشرة سحقها بحذائه وهو فى طريقه دون أن يدرى؟

وقف أمامهما سائقه وهو يقول: اتفضل يا "باشا". كان "تاج" قد أرسله ليشترى "لاب توب" أحدث طراز من شارع "عبد العزيز" بشرطين.. أن يكون مسروقاً وألا يعلم البائع أبداً من سيشتريه، وأن يدفع فى سبيل تحقيق هذين الشرطين أى مبلغ.. لم يعد سائقه بعد خدمة عشرين عاماً فى بيت "العريان" يندهش من أوامر "تاج" التى تبدو له دائماً غريبة، سلمه الجهاز فأعطاه لـ"حازم الصفتى" ونهض متثاقلاً وهو يهمس له:

– ساعة الصفر مدفع الافطار ليس قبل ذلك وليس بعد ، تمام يا "حازم".

– تمام يافندم.

تمتم بينما يغلق باب السيارة:

– ربنا يستر.. "عبد الرحمن" وهو صائم لا يمكن أن تتصور الشياطين رد فعله.

غاب "تاج" تماماً فى اللوحات المستنسخة التى علقها "عبد الرحمن" على حوائط حجرة الكشف لـ "موديانى" وفقط لـ"موديانى"، فتح عينية عن آخرهما لتبتلع طول شخوصه.... أذرع تمتلىء باللحم أكثر من الأفخاذ.. أعناق طويلة مساوية للجذع تماماً وأعضاء تناسلية هى مجرد مثلث للأنثى ومثلث منحرف للذكر.. عقود وأقراط و أساور أفريقية وشوارب مهذبة على عرى أخاذ.. أثداء نساء مجردة إلى كرتين.. عيون مطموسة مقوسة مشوهة تقترب من بعضها البعض أحياناً أو تقترب من أعلى الرأس أحياناً أخرى أو تعطى أنطباعاً ما بالحول فى أغلب الأحيان وهى بالطبع مزروعة الجفون والأهداب والنظرة... وجوه بيضاوية مستطيلة وأنوف مشرعة تكاد تخترق بطولها قماش اللوحة.. أفواه صغيرة وآذان أصغر تكاد تختفى مع كل هذه الاستطالات والدوائر وكأن "موديانى" لا يعترف بضرورة تواجدها، حمد "تاج" الله أن "موديانى" هذا مات وإلا كان رسمه هكذا.. هو الذى كاد يقتل نفسه عندما رأى لحمه المتهدل حوله فى مرآة الملاهى التى حرفت أبعاد جسده.

قال ببطء وهدوء على عكس ما توقع "تاج":

– انت إيه يا "تاج" ما بتحرمش؟ انت لسه ما شبعتش من اللى أنا عملته فى معارفك كلهم.. يا أخى أمتى ها تصدق إنى مختلف عنك وعن أصحابك، ثم أنا باكره "عمر الجوهرى" ده كره العمى، وبعدين بصراحة

يا "تاج" أنا بانصحك ماتروحش العزومة دى فيه حاجات انت ماتعرفهاش.

اقترب منه "تاج" وهو يداعبه متوسلاً مربتاً على صدره كالأطفال:

- علشان خاطرى يا "عبدو" مش ها تندم والله.

ثم بنبرة انتصار خفيفة:

- ثم ازاى يا راجل تقول لصاحبك الوحيد، واللى بيشتغل ضابط.. حاجات ما تعرفهاش.

كان يعلم أن "عبد الرحمن" يعمل طوال سنوات على إنجاز مخطوط ضخم ملغز... لم يسر له بموضوعه مطلقاً.. بل كان يخفيه على الفور إذا ما لمحه يحلق فيه بفضول، رمقه من بعيد رابضاً على مكتبه.. يبدو أنه كان يكتب طوال الليل.. تمنى أن ينسى وضعه فى الدرج وهو يراقب استعداده لدخول الحمام حاملاً على يديه بيجامة نظيفة، بينما يبرطم بالهدوء نفسه جملاً يحفظها "تاج العريان" جيداً.. أنا قرفت من صحبتك دى والله.. انت يا "تاج" عامل زى المصيبة بتنزل دائماً فى أوقات غير مناسبة.

جلس أمام المخطوط المكتوب بقلم أسود UNIBALL، والمتروكه هوامشه الضيقة البيضاء بانتظام مثير للدهشة.. تميل حروفه الانجليزية تارة إلى الأمام وتارة إلى الخلف، من الملاحظ أنه كان يضغط على القلم بعصبية حتى كاد أن يثقب الورق.. قليلة هى الكلمات المكشوطة أو المصوبة أو الفراغات التى تتخلله.. ما الذى يجعل الدكتور "عبد الرحمن" يكتب بخط يده ولا يستخدم الكمبيوتر الذى لا يتعامل كتابة إلا معه؟ إنه لم يره يكتب شيئاً بخط يده أبداً إلا روشتاته الطبية، حاول أن يحفظ عنوانه

The arab's unchanging concept of sex befor and after Islam.

[٤] ولكنه بعد أن سمع صوت الدش من بعيد، وتأكد أن "عبد الرحمن" تحته نقل العنوان.. الكلمات التى استطاع ترجمتها والتى لم يستطع على روشته من دفتر روشتاته وطواها فى جيبه على عجل، ولأنه لم يزل لديه وقت أخذ يقلب فى الصفحات ويتأملها طويلا وكأنها ستسر له بالإجابة عن تساؤله.. لماذا يضيع المرء حياته لكتابة بضعة أوراق؟!.. يقطعها أحياناً بعض الجداول والاحصائيات الممتلئة بنسب مئوية وعلامات عشرية ورسوم بيانية ، مرت عيناه على بعض الكلمات التى تعرف عليها من عناوين بعض الفصول مثل Rigidity[5] Immeaturity[6]/Narrowness[7]/ حتى توقفت عيناه أخيراً على هامش أسفل الصفحة مكتوب بخط "عبد الرحمن" الردىء حين يكتب باللغة العربية..// فى ترجمة المهدى لوفاته هذه السنة ذكر عيسى بن دأب قال: كنت يوماً عند الهادى إذ جيء بطست فيه رأس جاريتين قد ذبحا وقطعا لم أر أحسن صورا منهما ولا مثل شعورهما وفى شعورهما اللآلىء والجواهر منضدة ولا رأيت مثل طيب ريحهما ، فقال لنا الخليفة: أتدرون ما شأن هاتين؟ قلت لا، فقال إنه ذكر أنه تركب إحداهما الأخرى يفعلان الفاحشة فأمرت الخادم فرصدهما ثم جاءنى فقال: أنهما مجتمعتان فجئت فوجدتهما فى لحاف واحد وهما على الفاحشة فأمرت بجز رقابهما ثم أمر برفع رءسهما من بين يديه ورجع إلى حديثه الأول كأنه لم يصنع شيئاً. [٨]

ظل "تاج" بعينين لا ترمشان يعيد قراءة الهامش دون توقف حتى أنه لم يشعر باقتراب "عبد الرحمن" منه ومشاركته التطلع لما يقرأ عبر كتفه، أجفل وهو يزيح يديه عن مخطوطه ويصفقه مغلقاً اياه ويطبطب على ذراعه بازدراء لينهضه من على مكتبه:

- من فضلك يا "تاج"

وضع مخطوطه فى الدرج وأغلق عليه بمفتاح يظل فى ميداليه مفاتيحه، ولم ينبس بعدها بكلمة واحدة، حتى أن "تاج العريان" لم يصدق نفسه وهو يجلس إلى جواره، فتنحنح حتى يخفى الخجل الذى غطى صوته تماماً وقال لسائقه:

- المعادى ..بيت "الجوهرى"

بالضبط بعد خمس سنوات وستة أشهر ويومين ستفاجىء "سلمى" الجميع بنشر هذا المخطوط الذى استولت عليه بعد موت الدكتور "عبدالرحمن" باسمها بعد ترجمته إلى اللغة العربية وتغيير عنوانه، وستتم بالطبع على الفورمصادرته، وسيظل المتشددون من المنتمين للجماعات الإسلامية يولولون على منابرهم مطالبين برأسها، وسيظل الصحفيون من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار يملئون مئات الأعمدة فى عشرات الصحف يقلبون سيناريوهات مختلفة لمؤامرة عظمى على هذه الأمة مؤكدين أن هذه الباحثة الشابة قد قبضت دون شك الثمن من جهة ما، ولكن أحداً لن يفند أبداً ما احتواه الكتاب أو يتحاور معه ، ولن يعرف القارىء العربى أبداً ما هى القضية التى طرحها بالضبط هذا الكتاب!، بالطبع لن تؤلف "سلمى" ولن تنشر مطلقاً سواه، وستظل كلما أثير كلام عن حرية الرأى والتعبير أو عن أشهر الكتب التى تمت مصادرتها خلال القرن الحادى والعشرين تتربع على كرسى يطل من الشاشة الصغيرة وتتأثىء بأن هذا المناخ أصبح غير مؤات لتأليف أعمال جديدة أو للبحث العلمى أو الاجتهاد أو الابداع، سيخاصمها "تاج العريان" شهرين، وسيخاصمها "عارف" سنتين وعندما يعود لمحادثتها تلبية لرغبة أبيه وضعفه أمام رؤية أولادها، سيظل إلى أن يموت يذكرها أمام زوارها

ومعارفها وزوجها وأقاربه بأن فى كتابها خطأ واحدا عليها تصحيحه ألا وهو كتابة اسم مؤلفه الفعلى بدلاً من اسمها.

أرسل "حازم الصفتى" بينما يضيء الفضاء دعاء الشيخ "سيد النقشبندى" خمسمائة رسالة الكترونية تحتوى فيلماً مدته ثلاث دقائق لعناوين إيميلات وتليفونات محمولة حصل علي بعضها من "تاج العريان"، ومعظمها لأشهر مواقع البرامج الفضائية الحوارية وصحف المعارضة، والباقى من ذاكرة كومبيوتر "عمر الجوهرى" نفسه.. بنص واحد فى نهاية البث.. أدعوك لمشاهدة حلقة اليوم من برنامج "على نار هادئة" فى السابعة مساء وأضمن لك متعة فائقة لن توفرها المسلسلات الرمضانية.

على مائدة إفطار "الجوهرى" ظل "تاج" ينتظر رنين تليفونه بالجرس المميز للرسائل وهو ينظر إليه من آن لآخر بابتسامة متوترة هى نفسها التى تتطلع بها امرأة إلى باب تنتظر أن يدخل منه حبيبها، وكما توقع تماماً انشغل الجميع بالإفطار وبمجرد أن توالى رنين تليفونات جميع الحضور حتى ردد "محمد الجوهرى" مطمئناً إياهم:

– كل سنة وانتم طيبين.. أكيد الكل بيهنيء بالعيد.

انضم إليهم "عمر الجوهرى" بعد ربع الساعة من انهماكهم فى الطعام، نظر إلى الدكتور "عبد الرحمن" و"تاج" شزراً ولكنه حيا الجميع بأدب، مرت الدقائق العشر بعد السابعة علىٰ "تاج" كما يمر قرن، ظل بنصف عين يتابع "عبدالرحمن" المتروى على مقعد فى الفراندا يتأمل النيل ويدخن عدد السجائر الذى لم يدخنه طوال النهار ولا يشارك ولو بكلمة واحدة فى أحد الحوارات إلا إبدائه الإعجاب بأصناف الطعام وخاصة الملوخية، نفد صبر "تاج".. إن زمن البرنامج ساعة يقطعها عدد لا بأس به من الإعلانات، ولم يتحمس بعد أحد من الحضور الذين قرأوا الرسالة

مابين صلاتي المغرب والعشاء لأن يلبي مشاهدته.. كاد "تاج العريان" أن يفقد الأمل تماماً ويقوم بتصرف أهوج كالمرأة التي تيقنت أن حبيبها لن يأتي، والحفل الذي تنتظره فيه أوشك على الانتهاء.. لا شيء يعوى في الخلفية إلا أصداء المسلسل الكوميدي.. فجأة دخلت حرم "محمد الجوهري" مهرولة وهي تكاد تغطي بجسمها ابنها المتروى أمام الشاشة ببلادة وتصرخ.. الحق يا "باشا"، خرج خلفها وانتظر "تاج" أن يلحق بهما "عمر" ولكنه ظل كما سيظل بقية حياته بعد أن يتم إيقافه عن العمل ومثوله أمام محكمة عسكرية هو وعساكره الذين شاركوه فيما فعل جالساً متسمراً على كرسي منتظراً أن تقترب منه ولو ذبابة صغيرة كي يفعصها، بينما لا يرى أمامه على مدى الشوف إلا جملة واحدة القضية ٢٣٧ لسنة ٢٠٠٦ / نيابة عسكرية، لم يجد "تاج" بداً من الاقتراب وخطف الريموت من أمامه، فدوى في قاعة الاستقبال التي سادها الهدوء فجأة صوت المذيع وهو يصرخ بحرقة ميلودرامية والدموع تكاد أن تطفر من عينيه ولولا أنه ألثغ في حرف الزاي الذي يحوله إلى سين لنافس "يوسف بك وهبي": ماهذا؟ هل نحن في غابة؟ كيف سولت له نفسه أن يتجبر إلى هذا الحد؟ هل حقاً يحدث هذا ونحن في القرن الحادي والعشرين؟ أعزائي المشاهدين إنني أكاد أختنق من الغيظ.. وكان على وشك أن يجهش بالبكاء وهو يقول: وحتى أستطيع التقاط أنفاسي مرة أخرى، سأعرض عليكم.. على ضمائركم مرة أخرى هذه الكارثة.. هذا الفيلم غير الأخلاقي القصير..

يقف "عمر الجوهري بملابسه المدنية ووجهه البيضاوي وشعره اللامع المصفف بالجيل.. على عينيه وضع المخرج مستطيلاً يشبه العصابة السوداء.. كان قد فتح سوستة بنطاله وتدلى عضوه مثل موزة محتقنة فاسدة ولكن المخرج وضع عليه بالطبع مثلثاً أسود يغطي أيضاً حركة يد "عمر" وهو يمسكه ويلوح به مهدداً "أحمد عواد" الذي يقع في حالة

ذهول تحت قدميه، بينما يردد هو بصوت عال:

– "أنا بقى يا روح أمك بتاع رجاله مش بتاع نسوان"

تغطى قهقهات العساكر على صوته، ويندفعون وهم يحاولون تجريد "أحمد عواد" من بنطلونه وهو يقبل أقدامهم جميعاً، فيوقفهم "عمر الجوهرى" وهو يلتقط أنفاسه من الضحك: كفاية كده النهارده، ويغلق بحزم سوستة بنطاله بينما المثلث الأسود يتأرجح حتى يختفى فى النهاية.

لقل "عبد الرحمن" الذى تابع الفيلم من باب الفرندا عينيه من على الشاشة إلى وجه "تاج" الذى رأى بالطبع هذا الفيلم مراراً والذى كلف "حازم الصفتى" أن يصوره بهذا النقاء بتليفون محمول من أحدث طراز مسروق اشتراه له سائقه من شارع "عبد العزيز"، والذى لا يستطيع الآن رفع عينيه عن وجه "عمر الجوهرى" المتسمر فى كرسيه وكأنه صعق بالكهرباء، فارتخت شفتاه وحاجباه وذراعاه وتمددت أمامه ساقاه.. أصاب الحضور كلهم ذهول وصمت لم يقطعهما إلا صرخة "الجوهرى" الكبير الملتاعة: كذب.. افتراء والله كله كذب وافتراء.

أهمل "عبد الرحمن" "تاج" من كرسيه وهو مازال يحملق فى وجه "عمر" البائس بابتسامة متشفية، دفعه بازدراء دفعاً حتى خرجا من الباب، وجمعه الضئيل أجلسه فى السيارة بعنف وهو يصرخ فى السائق أن ينطلق، ثم وأمام ابتسامة "تاج" الغريبة والتى أصبحت بلهاء تماماً جز على أسنانه حتى يحد من صراخه:

– تتم جرائم القتل هكذا يا "تاج".. ألا يتسحب فى الوقت المناسب أحدهما.. القاتل أو المقتول.. ألم يعلمك أحد هذا؟

وأمام عيادته قال للسائق بهدوء:

لا أنا معاه الليلة دى. على بيت "العريان" ثم همس فى أذن "تاج":

- انتقمت!! انتقمت يا "تاج"! وقطعت على "سلمى" طريقاً كان سيجعلها إذا مشت فيه للنهاية كائناً محترماً.

تركه ملقى على سريره بملابسه وقد انطلق شخيره بعد ثوان من فم ترتسم عليه ابتسامه راضية.. كان آخر ما تفوه به وهو يرد على محموله.. كله تماماً يا حازم.. اتخلص حالاً من المحمول واللاب توب.

حاول أن يدخل حجرة "محمد العريان" ليجلس إلى جواره قليلاً ولكنه وجد طبيبه وحفنة ممرضات يحاولون جاهدين انقاذ احتضاره الطويل من نهايته.

طرق باب "عارف تاج" وجلس بهدوء صامتاً أمامه..

كان غارقاً إلى ما لانهاية فى تساؤله.. هل سيتورع "تاج العريان" عن أن يرسل لابنته فيلماً قصيراً مدته ثلاث دقائق لن يضع عليه أى مخرج عصابة سوداء على العينين أو مثلثاً يتأرجح على عضو مرتخ لرجل ظلت تحبه طوال سنتين؟! وكان "عارف" غارقاً فى تأويل تصرفات "نفرت جاد" الأخيرة التى صارت مثل تصرفات عروس برمة.. شبعت من ألعاب الفراش وتود الآن مثلاً أن تذهب إلى الكوافير لتصفيف شعرها المهوش أو انجاب طفل أو السهر فى حفلة ما وهى تتأبط ذراع زوجها متباهية أو الذهاب لرحلة طويلة تعود منها بحقيبة هدايا.. تقترب منه بفتور فى بداية الليل وبعد أن يشعل جسدها وتمتص نيران جسده تنسحب بالفتور نفسه وهى تتلفت بالفزع الأول الذى داهمته به إلى ما ورائها.. ينظر إلى قاتلها ذى النقاب ويقبلها طويلاً ولكنها تتركه بتقطيبة عروس قررت أخيراً تنغيص حياة زوجها لأنه لا يفهم ما لا تستطيع شرحه له.

يبدو أن الدكتور "عبد الرحمن" يتحدث إليه منذ فترة طويلة.. ربما عن فكرة تجاور كل شيء منذ بدء الخليقة وحتى الآن.. كان يجرب تركيب الجمل ليؤكد أنه لا يزال يوجد إنسان ما فى مكان ما يعيش كما يعيش الإنسان فى لحظة خلقه تماماً.. أى أن هناك رجلاً عمره يوم واحد ورجل عمره آلاف السنين، وأن لا شيء يموت أبداً ولا تحترق مرحلة إلى ما لانهاية، وأن كل ما حدث منذ بدء الخليقة وحتى الآن ليس مسجلاً فقط فى مكان ما فى السماء عند الله وإنما أيضاً مسجل على الأرض ولكننا لا نرى... ربما كان يقص عليه أن قبيلة "موكاك ماكو" فى جبال الأمازون بكولومبيا لم تسمع عن العالم المتحضر ولم تتصل به إلا منذ عشرين سنة فقط وأن العلماء اكتشفوا قبيلة برازيلية تدعى "البيراها" لم تتصل بالعالم إلا منذ مائتى سنة فقط وأنها ليس فى لغتها بعد مفردات الحساب ولا الألوان ولا الوقت ولا مفهوم النسب وبالتالى القرابة، وأن الفرد ربما كان يحمل داخله خريطة بالغة الدقة بتاريخه منذ بدء الخليقة وحتى الآن، وأنه ربما يعود تميز الأفراد عن بعضهم البعض إلى تغلب عدد سنوات فى قرن ما من مئات القرون على عددها فى قرن آخر.

انتبه عارف بكل حواسه، وماتت فى حلقه صرخة، بينما يتابع الدكتور "عبد الرحمن" إشعال سجائره بهدوء وكأنه لم يقلب تواً حياته رأساً على عقب، ولم يجتز كابوسه الدائم من جذوره.. ماهى قصة الفيلم الذى يمكنك تصويره إذن يا عارف؟ ماهى القصة التى تستطيع استيعاب كل هذا القبح لتحكى مصرع ملكة الجمال؟ وكيف ستجد قاتلها.. لا شيء يمنع أى أحد ليكون قاتلاً.. لأنه فى الحقيقة لا يوجد سبب وحيد يجعل إنسانا يقتل آخر.. فقط يستحيل أى شخص (المحارب واللص والفنان والأم والابن والحبيب وحتى الفكرة) إلى قاتل إذا تغلبت عليه اللحظة القابعة فى تكوين خريطة وجوده.. تلك اللحظة التى قتل فيها

قابيل هابيل، لقد أصبحت معادلة الجريمة ضيقة عليها فالقضية أكبر من أن الجريمة = حاصل جمع الذراعات + موقف ما [٩]

المقاومة

وانتفض مستدركاً.. آه والدكتور أيضاً، فأنا لو لم أكن معك وقت ارتكاب الجريمة يا "عارف" لظننت أنني قاتلها وهكذا سيفكر كل من انتابته حسرة انتهاكها.. كل من ظن أنه كان عليه حمايتها بشكل أو بآخر.. كل من يريد قتل قاتلها فقط لكي يستخدم هذه اللحظة المحفورة في تكوينه ولو على مستوى الخيال.

إذن لقد كانت تمهد لانسحابها. لن تظهر له مرة ثانية.. نعم لقد ذهب إلى عيادته بعد مقابلة "ميرنا" في "المينا هاوس".. يتذكر الآن أنه حدثه عن خوفه من الزواج وأنه يحبها وأنه يريد بناء مستقبله الفني أولاً.. يفهم الآن لماذا سقط هذا المساء من ذاكرته تماماً فالاختيار بين "ميرنا" والسينما كان صعباً للغاية، ولكنه لن يفهم إلا بعد عشرين عاماً سبب اختيار "نفرت جاد" لمداهمته في فراشه هو تحديداً دون سائر الرجال!

سيجلس تحت شجرة في النادي ليستمع إلى ثرثرة امرأة عجوز مع "ميرنا" حول شعره الذي ابيض تماماً وهو يلاحق أفكاراً تصلح للسينما وسينتبه وسيبتلع صرخته والعجوز تؤكد "لميرنا" أن زوجها هذا كان أكثر وسامة من كل نجوم الشاشة آنذاك وأنها تابعته منذ ما يقرب من عشرين عاماً عبر نافذة الاسكواج من هذا المكان – وأشارت بأصبعها نحو الأشجار – وأنها انتبهت لفتاة جميلة تقف إلى جوارها وتتابعه بوله وهي غائبة عن الوجود حتى أنها لو كانت في يدها برتقالة وسكين لأغرقت النافذة بدمها ولكنها بعد أيام بالضبط قتلت هل تتذكرونها إنها .."مس إيجيبيت".

همس بإجلال وكأنه يردد إسمها خلف هذه المرأة كما سيردده بعد عشرين عاماً .."مس إيجيبت"، وابتسم فى وجه "عبد الرحمن" الذى ظل يصيح كطفل جائع: ياساتر على ملل البيت ده. أنا عايز أتسحر. انتم ها تسحروني ولا إيه. يا ابنى الإمساك قرب.

تطلع إلى ضحكتها الخلابة التى تحتل نصف الجدار أمامه بينما تنفرج الستارة ببطء عن وجه قاتلها الوسيم.

الكتابة مقبرة الحقيقة التى يخشى الملك الاقتراب منها.

عارف تاج

(١٢)

يعلم أنه لم يمت بعد ، وأن هذه الحشرجة ليست مصاحبة لخروج روحه من جسده، وأن تخلخل منظومة الهواء حول رأسه ليست رفرفة أجنحة عزرائيل، وأن من يحملقون فى عينيه المفتوحتين منتظرين أن يشهدوا نهايته ليسوا ملائكة أو شياطين وإنما هم ورثته الذين سيستمتعون بما تركه وسيطالعون كل يوم شروق الشمس وغروبها وأفخاذ النساء المشدودة ومذاق النبيذ الفرنسى الفاخر ، وصدور الدجاج المشوى فى الهواء الطلق، ورائحة البحر فى شهر أغسطس، وملمس اليود على الجلد البرونزى العارى، ورعشة لمس يد الحبيبة واستنشاق رائحتها، وذروة اختراق العذروات ووضع الحذاء على رقاب الأعداء، وصفع الابن على مكان تقبيله، والحملقة فى البدر المستدير ومتابعة اكتماله واختفائه، والسخرية من الأغبياء ومنافسة الأذكياء والتنكيل بالأنبياء، واختراع مهام جديدة كل يوم، وقيادة أوركسترا يصمم أعضاؤها دائماً على العزف النشاز.

يعلم أنه لم يمت بعد، ولكنه لا يستطيع تحديد من أين أتى بثلاث مكواة شعر مختلفة الألوان؟ ومن أين أتى بنيران لتسخينها حتى درجة الإحمرار؟ وهل كان هذا هو ترتيبها.. مكواة الشعر باليد الحمراء لحبس

ثديها الأيسر وذات اليد الخضراء لحبس ثديها الأيمن وذات اليد السوداء فى ثقبها الرائع؟ من أمره بتنفيذ هذه العملية؟ وكيف تأتى له ذلك وهو يقف وسط نخيل سامق أمامه البحر مباشرة وخلفه قصر المنتزه.. يترع عنها بهدوء ملابسها بعد أن خدرها يلقى على الرمال حمالة ثديها البيضاء المطرزة بخيوط ذهبية والمحشوة بالإسفنج وفق موضة السبعينيات، ولباسها القطنى الأبيض المنقط بنقط كبيرة صفراء ، لا تثيره مفاتنها برغم أنه فى عز شبابه.. يبدو أن عليه قتل أحد زملائه أيضاً.. يبدو أن المقصود من هذه العملية تصفية زميله هذا.. لم يعد يتذكر الآن ماذا فعل؟ هل ثبتت خيانته مثلاً ..؟ وماذا خان ؟ هل اعترض على تنفيذ أمر ما؟ هل شكك أحدهم فى ولائه مثلاً؟ هل كان مستقلاً برأيه إلى حد وجوب التخلص منه؟ لم يعد يتذكر لماذا توجب قتله بهذه الطريقة المشينة وهو عار تماماً وفوقه فتاة جميلة عارية جلبها بنفسه من ملهى "تمر حنة" بالشاطبى؟ لم يفكر فى لحظة تنفيذ هذه العملية بينما يتأمله إلا فى عضوه الصغير البائس، وجلده الأجرد من الشعر وبشرته البيضاء الناعمة كامرأة ورعبه الذى قابل به رصاصته والذى يدحض كونه خطراً على أى شىء فى الحياة وضع المسدس فى يدها الميتة الصغيرة ثم فرك كفيه المغطاتين بقفازات سوداء بسعادة ليدفئهما.. ووضعها بهدوء فوقه أو أنه وضعه بهدوء فوقها.. لم يعد يتذكر الآن ولكنه يتذكر جيداً نظرة زوجته التى تم استدعاؤها على عجل.. تلك النظرة التى تميز المتسولين والتى لا تعنى إلا حسبى الله ونعم الوكيل.. يتذكر سجودها تحت قدميه على بقعة ربما قبل فيها الملك فاروق الملكة فريدة.. أخذت تدارى عينيها عن جثة زوجها العارى فوق عاهرة لا تعرف من أين أتوا بها فى بنطاله العسكرى وتتوسل إلى مالا نهاية.. استره يا باشا.. استروه وادفنوه بدون فضايح.. ده برده الرجل بتاعكم.. الله يسترك يا باشا.. استروه. دى خلفته كلها بنات.

لم يمت بعد ، وأمام عينيه تتناثر نيران مدفعية ثقيلة لم يعد يعلم هل كان يهاجم بها قصراً ما أم ثكنه عسكرية ما.. تهاجم أنفه رائحة أزهار برية من تلك التى تلقى أمام المقابر فينوح مثل جندى مجهول يقف وحده فى العراء ويلطمه الهواء الساخن على كل جزء من أجزاء جسده المعدنى. يعلم أنه لم يمت بعد وأن هذا الأنف المعقوف لصديق ابنه الذى يعذبه من آن لآخر.. يستمع إلى صدى صوته هو العميق آتياً من عمق نصف قرن:

– ياافندم أنا أفهم أن الإقطاعيين وخدمهم يتحسرون على أيام ما قبل الثورة، ولكننى لا أفهم لماذا يتحسر عليها الحفاة الجرابيع من جموع الشعب؟ لا يتذكر من هذا الذى كان يخاطبه بيا افندم آنذاك، ولكنه يعلم الآن أن هذا الصوت الحلوالواضح النبرات ليس صوته وأنه لم يعد لديه صوت ما كى يميز به.. وبعد يا "باشا" وبعد هل كانت هناك استحالة فى القضاء على الظلم الاجتماعى البين والفساد السياسى والإدارى تدريجياً بدون أن تضعوا البلاد وبهذا العنف على أول عتبات درج جديد؟! كنا نتنسم هواء حرية آنذاك أنقى بكثير مما يجثم على أجوائنا الآن.. كانت البلاد (حامل) بثورة حقيقية أتت بحزب يديرها رغم أنف الملك، وكان الاستعمار يحزم حقائبه ويستعد للجلاء على أية حال من الأحوال، وكانت القاهرة من أجمل مدن الدنيا وكنا أكثر نظافة ورقياً.. ماذا نفعل الآن يا "باشا" ونحن لدينا عشرات المفكرين وليس لدينا "طه حسين" واحد.. لدينا مئات الوعاظ يتربعون فى الفضائيات وليس لدينا "محمد عبده" واحد.. لدينا عشرات المطربات وليس لدينا "أم كلثوم" واحدة لدينا ملايين الدارسين بالمجان ومتعلمون أقل.. لدينا وسائل راحة كثيرة ووقت أقل مما يجعلنا لا نلحق بأى شىء.. لدينا فاترينات بها ما لا نستطيع إحصاءه ولا شىء فى مخازن مصانعنا الخاوية على عروشها.. لدينا نكات كثيرة وضحك أقل.. لدينا أحزاب كثيرة ووجهات نظر أضيق..

لدينا كتابة كثيرة وكتب أقل.. لدينا عاهرات أكثر من أعداد أعضاء الذكورالتناسلية التى تعمل مرتين.. لدينا ملايين العبوات من معطرات الهواء ورائحة عفننا أفدح لدينا قتلة وجلادون يزيدون عن حاجتنا ولذا يبحثون فى الخارج عن جثث أكثر.. لدينا أطنان من المناديل الورقية للاستعمال مرة واحدة وفى مآقينا دموع أقل.. لدينا نقود كثيرة ونحن أفقر.. لدينا صحارى شاسعة وتأملات تافهة.. لدينا حواسب كبيرة عليها معلومات منذ بدء التاريخ حتى الآن وذاكرة أنضب.. لدينا فى خزائننا شعر كثير وعلى آذاننا تراكم عبر السنين صمغ أكثر.. نقوم بجهد كبير ونحصد نجاحا أقل.. نهذى فى الجرائد والبرامج والمساجد والكنائس من الصباح إلى الصباح ولا شيء يتبقى مما نقول.. نضاجع نساء أكثر ونتفرج كل يوم على دخول جديد لأعضاء فى أعضاء ولا نستمتع.. لدينا ليل طويل ونهارات أقصر.. نفتح الظلام على آخره ونضرب كتله فى بعضها البعض حتى تتوالد شرارة ما ولكنها تذوى سريعاً فور اشتعالها.. نصلى أكثر ونصوم أكثر ونزكى أكثر ونحج لبيت الله كل عام وخراب أرواحنا يزداد أكثر.. لدينا...

أنهضه "عارف" برفق وكأنه يخشى أن يستحيل إلى كومة رماد كعنقاء الأساطير القديمة.. كان صدى نشيجه يصطدم بجدران الغرفة وخراطيم الأجهزة الطبية وبعينى "محمد العريان" المفتوحتين على اللا شيء وبأذنيه اللتين لا تسمعان منذ زمن، وبصوره إلى جوار دبابات غطى الصدأ جنازيرها وإلى جوار ملوك وزعماء وسياسين كبار شنق بعضهم وضرب بعضهم بالرصاص وحددت إقامة بعضهم كما الدجاج فى قصور نائية ومات اغلبهم مسموماً.. كان نشيجه المحموم يصطدم بنجوم العريان النحاسية التى لم تعد تلمع الآن وبرائحة الهواء الثقيلة التى كانت إذا ما خيمت على رءوس زواره ينتابهم شعور ما بعدم الجدوى.

قاده إلى الردهة الخافتة الإضاءة وأجلسه إلى جوارأبيه فى غرفة المكتب.. جلس ثلاثتهم يحملق كل منهم فى وجه الآخر دونما قصد وكأنهم يجلسون فى سرادق عزاء منتظرين معزين لا يمرون أبداً.. انحنت "نسل شاه" امام "تاج العريان" وأعطته قرصاً ما وكوب ماء.. عادت من السعودية بوشاح أبيض سيلازمها إلى أن تموت وبحقيبة صغيرة زرقاء بها ملابس "كمالة" التى أوصتها أن تتركها فى الرمال المقدسة لتظل كما عاشت بلا شاهد.. من حكى لـ"محمد العريان" كيف قتلت "نفرت جاد" حتى يردد اسمها دونما توقف؟ وكيف عرف أن "كمالة" دفنت هناك دون أن يشير أحدهم إلى ذلك حتى يظل طوال الوقت يتوسل

– عاوز أحج يا ناس.

استسلم "تاج العريان" بعد أن ضرب "عمر الجوهرى" بالضربة القاضية لصمته تماماً.. لم يعد يعنيه ما يريده أبوه ولا الآخرون إذ أنه هو نفسه لم يعد يريد شيئاً على الإطلاق.. تابع يد ابنه وهى تضغط على "الريموت" باحثة بهذيان عن إحدى الفضائيات وتأمل طويلاً عينيه الممتلئتين بدموع من لايصدق أن الحقيقة مرعبة إلى هذا الحد.. لقد ظل هو ينظر فى أعين الجثث المفتوحة طوال عمره وهيء له أنذاك أنه يعرف الاجابة عن سؤاله الوحيد.. لماذا يقتل الإنسان إنساناً آخر؟!

بل كان إذا ما سأله رجل ما منذ عشرين عاماً لماذا تبيد شعوب شعوبا أخرى ولماذا يقتل المرء أخاه يتخيل على الفور أن هذا الرجل لديه نهدان بارزان تحت ملابسه.. الآن يتطلع إلى ظمأ ابنه لإنارة بعض زوايا المشهد المظلمة وكأنه إذا ما وقف على كل التفاصيل سيعرف الأسباب، التقت عيناه بعينى "عبد الرحمن" فابتسم بمرارة.. ما الفرق بين أن تسر لك عين القاتل أو عين القتيل بالحقيقة؟!

منذ شهرين بالضبط دخل "عارف" إلى مكتب "عمر الجوهرى" الذى يجلس فيه الآن "حازم الصفتى" استغرق ثلاثين دقيقة وأربعة فناجين قهوة حتى يبتلع ريقه ثم قال وكأنه يملى اعترافاً تحت وطأة تعذيب لا يحتمل.. كنت أحلق ذقنى فى "المينا هاوس" وكان فى الصالون رجل في حدود الأربعين تقريباً – لم يقل إنه شاهده فى المرآة فجأة يرتدى نقاباً ويطل من عينيه يقين يجعله دون شك قاتلها – وإنما ردد ببساطة:– واعترف تقريباً بقتل "ميس إيجيبت" وأخذ يبرر سبب قتلها، وأضاف وهو يبتلع غصة فى حلقه:

– ولكننى لحظتها لم اصدق الرسالة.

ورفع عينيه إلى عينى "حازم " وقال بصوت متوسل:

– أعلم أن هذا غير كاف فأنا ابن "تاج العريان" وأعرف متى تتحركون للتأكد من بلاغ أعلم أن الأمر يبدو وكأنه هلوسات ولكن لن تخسروا شيئاً إذا ما تأكدتم.

لـ "حازم الصفتى" وجه طيب وابتسامة تهون كل شىء.. ضغط على جرس فى مكتبه وطلب له قهوة أخرى وأخرج ورقة بيضاء (A4) وهو يقول ضاحكاً:

– طبعاً يا "عارف" أوصفه لى وسأكتب كل ما تقول وفوراً هـا ازور الحلاق النهارده ، والله يا راجل أنا من زمان نفسى أحلق فى مكان شيك كده.

خطف منه "عارف" الورقة ووضع القلم الجاف الذى أعطاه إياه "حازم" جانباً وظل يبحث عن قلم رصاص وممحاة ومثل طالب لم يتبق على نفاد وقت امتحانه إلا بضع دقائق جلس وهو يقول بسرعة: لا سأرسمه. أنا بارسم كويس.

نهض "حازم" ودار حول مكتبه وتابع عبر كتفه القلم الرصاص وهو يرسم ما يشبه الستارة السوداء والممحاة وهى تمحو جزءاً بعد جزء من هذا السواد لتظهر عينان واسعتان كحيلتان تحتلان مساحة كبيرة من وجه أبيض مستدير وأنف مستقيم وفم بشفاه ممتلئة تجعله ابتسامته الساخرة منحرفاً قليلاً وحاجبان كثيفان مهذبان مثل حاجبى امرأة وشعر أسود ناعم ولامع مصفف بعناية ومثبت بمثبت شعر انتبه "عارف" لرأس "حازم" فوقه تماماً وقد تلاشت ابتسامته، فابتسم مرتبكاً وحتى ينقذ "حازم" مما وقع فيه هو شهوراً طويلة كتب أسفل الوسيم ذى النقاب وكأنه رسام عالمى يوقع إحدى لوحاته "ذو الصوت الأجش".

بادله "حازم" ابتسامته بابتسامة مرتبكة ولسان حاله يقول.. ظننتك ترسم نفسك.

وجد "عارف" القناة التى يبحث عنها أخيراً.. كانت تعرض فيلماً تسجيلياً عن الإرهاب الدينى وتزايد وطأته ابتداء من النصف الثانى من القرن العشرين مما جعل الدكتور "عبد الرحمن" ينفجر ضاحكاً بعصبية وهو يرفع حاجبيه الكثيفين بدهشة ويخبط على ركبة "تاج":

– شفت يا "تاج" يعنى القرن السابع مثلاً أو الخامس عشر مثلاً ما فهومش إرهاب دينى.

بلاش دول. شاور على أى قرن تحبه وأنا أقول لك كان فين الإرهاب الدينى فيه.. شفت يا "تاج" يعنى ملايين اليهود الذين حرقهم النازى ماكانش إرهاب دينى.. والمسيحيين الذين هربوا من الخوزقة واخترعوا أديرة فى صحراء سيناء تؤويهم ماكنوش هربانين من إرهاب دينى، والمسلمين الذين بقرت بطونهم تحت سنابك الخيول الصليبية ما راحوش نتيجة إرهاب دينى.

دول كانوا ملايين يا "تاج"، فاهم يعنى إيه ملايين !

ثم صاح غاضباً

– ماتقفل البتاع ده يا "عارف"

ضغط "عارف" على زر أخفى صوت التلفزيون تماماً وهمس متباطئاً:

– طيب يا عمى.. دقيقة بس.

ظل يتابع دونما صوت الوجوه الملثمة عبر نصف قرن وهى تتخذ كل الأوضاع واقفة أو زاحفة أو راكعة أو منبطحة بينما تصوب الرصاص بكل جدية نحو أهدافها أمام عينيه كادرات حرائق فى عدة مبان فخمة يبدو أنها سفارات بعض الدول، ومظاهرات فى بعض الدول وتحرق فيها أعلام بعض الدول ،وتحطيم تمثال "بوذا" بالمعاول، واجتياح أحد المتاحف العراقية، وأشياء ناعمة مدماة تتحرك أمام جداريات فرعونية يبدو أنها أمعاء بعض البشر.

لم يسمع من حديث أبيه والدكتور "عبدالرحمن" كلمة واحدة.. كانت الكادرات تسقط بسرعة أمام عينيه فكاد يصرخ... لم يعد لدى أبطال صالحون لأى فيلم.. اختفت "نفرت جاد" وإلى الأبد محتضنة فى بؤبؤعينيها قاتلها.. وجلس "عمر الجوهرى" على مقعد أمام البحر يضع احتمالات لانهائية طوال الوقت لإعادة إخراج ثلاث دقائق فى حياته.. وسافر "أحمد عواد" بانكساره إلى بلد عربى وتاه فى قصر إحدى الأميرات مع سائقين وخدم باكستانين وفيتنامين وغلمان وخصيان جدد.. يكوى شعرالأميرة فى الصباح ليصنع منه كعكاً عالياً وثعابين تتلوى فوق أذنيها ليهده لها فى الليل عن عمد عندما تعتليه.. يطلى أظافرها بلون قرمزى فاقع ثم يتابع مدى ملاءمتة لبشرتها عبر مرآة السقف وهى تخربش ظهره

وهو فوقها.. يتأمل فى عينيها المرويتين إلى حد البلاهة ذيل حصان يتهادى بأسى حتى يغيب فى وحدة قاتلة.. ينظر دونما ضغينة إلى خزانة حديدية محبوس فيها جواز سفره الأخضر المزين بنسر ذهبى.. لن يلتقى بـ "ليلى طوسون " أبداً كنهاية تصلح لفيلم تجارى ناجح.. لن يغلق عليها باب حجرة ما فتخجل من سنوات عمرها ومن النور فتطفئه فيفتحه بإصرار ليفرجها على جمال عريها جزءاً بعد جزء ويجعلها تحب حتى عيوبها.. سيتركها تعيش فى إضاءة خافتة لن تتعدى نور لمبة خمسين وات حتى لاتواجه فى المرايا تجاعيدها وستروح تماماً فى حكايات أبيها عن جدها عن جدها...

منذ أيام تم القبض على "عونى حافظ" متلبساً بذبح أستاذ علم الاجتماع الدكتور "سيد الجيزاوى" ووسط صخب إعلامى هائل، وبينما تضرب جمعيات المجتمع المدنى ومنظمات حقوق الإنسان رأسها فى الحائط وهى تحاول شرح حقوق الإنسان للإنسان، ولا شىء يعلو فى الأجواء سوى الثلاث دقائق المصورة للملازم "عمر الجوهرى" وتحت قدميه "أحمد عواد".. سيتم التحقيق مع "عونى حافظ" وستجعله وسامته وذقنه التى نبتت مؤخراً والتى تشبه كثيراً ذقن "جيفارا" بورتريهاً جذاباً لأغلفة معظم الصحف والمجلات حتى مجلات الموضة النسائية.. سيدلى بتفاصيل دقيقة واعترافات صارمة لا يشوبها شك بارتكابه ثلاث جرائم منذ بداية الألفية الثالثة وسيؤكد عدم ندمه على ارتكاب أى منها بل سيحمد الله أنه استطاع آنذاك تفجير الكفرة من القردة والخنازير.. وما لن يعلمه المحققون ولا أى مخلوق أبداً أنه أدلى باعترافاته حتى يحرر العشرات من إخوانه المحتجزين منذ سنوات على ذمتها.. سينفي باستماتة وازدراء وبدون أن يدرى هو نفسه لماذا وكأنه ينفذ ما يملى عليه من قوى عليا أنه قتل "ميس إيجيبت"، وسيسأل وكيل النيابة وفى صوته الأجش نبرة

سخرية.. ولماذا أقتل نسوان ناقصات عقل ودين؟! وسيجيب عن سؤاله حول العباءة والنقاب أين أخفاهما بتحد واستهتار.. لو انني مكان القاتل لغسلتهما جيداً بيدى على الرغم من أنه كان حريصاً على ألا يلوثهما بالدماء، ولكويتهما أيضاً بيدى ولوضعتهما فى حقيبة بلاستيكية شيك مكتوب عليها مثلاً "سيتى ستارز" ولتبرعت بهما لأحد الجوامع أو الزوايا حتى تستر بهما أخت مؤمنة ما جسدها، وعليكم بالتالى البحث عنهم فى منازل مليون امرأة على الأقل، وليس سؤالى أنا عن ملابس النساء.

احتل وجهه الشاشة كلها بعد انتهاء الفيلم التسجيلى وبرغم أن "عارف" همس همساً:

- بل أنت قاتلها

فإن الدكتور "عبد الرحمن" وأباه صمتا فجأة وتابعا صورته مع "عارف".. كان قد تغير كثيرا منذ لقاء الحلاق... تساءل "عارف" لماذا لم يعلق "حسن" الحلاق على الشبه بينهما؟ فى عينيه اليقين نفسه ولكنهما زائغتان الآن كعينى أسد مجلوب للتو من إحدى الغابات.. ضغط "تاج" على زر اخفاء الصوت فجاءهم صوت المذيعة الجميلة وهى تسرد للمشاهد مسيرة الدكتور "سيد الجيزاوى" العلمية فازدادت تعبيرات الازدراء على وجه "عونى حافظ" وظل على صمته وهو ينظر فى جميع الاتجاهات.. أخطأت فى قراءة الكثير من عناوين كتبه ولم تستطع التفريق بين مقالاته وأبحاثه وتباهت فى كل جملة بنطق كلمة "الانثربولوجى" فأزاح المخرج صورة القاتل الذى ينظر إليها بغضب ويكاد يفتك بها وعلق صورة الدكتور "سيد الجيزاوى" بقميص مقلم أخضر بائس.. ربما لكى يمصمص المشاهدون الذين لم يقرأوا له كلمة واحدة ولا يعرفونه شفاههم شفقة.

همس " عارف " من جديد عندما عاد القاتل :

– انت قاتلها.

فتهيأ لـ "تاج العريان" والدكتور "عبد الرحمن" أن "عوني حافظ" أشاح بوجهه عن المذيعة والتفت إلى الكاميرا أو إلى "عارف" تحديداً وأخذ ينظر إليه مباشرة فى عينيه بتحد وبلا نهاية حتى أن المذيعة الجميلة ارتبكت وكادت أن تسأله:

– إلام تنظر؟

نهض "عارف" واقفاً وبادله نظراته وسط ذهول أبيه والدكتور "عبد الرحمن" وانطلق الآن صراخه وهو ينتفض:

– هل يتم الأمر هكذا ؟ ! هل يتم هكذا ؟!

ابتسم "عوني حافظ" بسخرية وعيناه فى عيني "عارف" لا ترمشان، بينما المذيعة الجميلة تكاد تخرج عن اسكريبت البرنامج لتتهم ضيفها بالجنون ولكنها ظلت تتهته:

– أنا أعدت عليك السؤال عشرات المرات.. لماذا وافقت على التسجيل معى إذا كنت ترفض الكلام؟؟

انقبضت ملامح "عارف" تماماً وكأنه يشاهد فيلم رعب لم يتم تصويره بعد.. رأى "عوني حافظ" يدخل من بوابة سوداء من الحديد المشغول بطواويس استوعبت ذيولها كل ألوان الطيف.. كان يعتبر أن قراءة مثل هذا الكتاب حرام، ولكنه من باب تحفيز نفسه على الإجهاز عليه بسرعة ظلت عيناه تجريان على بعض الفقرات..

((إن العرب يقفون كالبلهاء على أرض مطار أقلعت منه بالفعل

طائرة الحضارة.. إنهم لا يريدون الاعتراف أمام أنفسهم وأمام العالم بأنهم انتهوا منذ زمن طويل .. لماذا لا يريدون الاعتراف؟! أليس من النبل ان يتقبل المرء موته كما اعترف له العالم بميلاده.. ان اعترافهم ربما كان البداية الصحيحة.. فكم من حضارات ماتت وبدأ أصحابها فى تشكيل ملامح جديدة لولادة حضارة أخرى !)).

((ماذا تريد الجماعات الإسلامية من مصر الآن؟ لقد أخذت فرصتها كاملة ولقرون طويلة انتهت إلى مقولة "الجبرتى" فى وصفه للظلام الذى غطى كل البقاع.. عم الخراب إقليم مصر ومن لم يمت من المصريين فى وباء أو مجزرة فقد مات بسبب المجاعات المتكررة وأكل الناس بعضهم البعض وجفت الترع والدروع وبارت الأرض وجن فلاحوها واختبئوا من جباة الضرائب فى الآبار المهجورة وعند حدود الصحراء)) (١٠)

((لم يخرج البلد من الجهل الكامل والخرافة والشعوذة إلا "محمد على" الذى وضعها على طريق النهضة وأسس مصر الحديثة ومهد الطريق لـ "رفاعة الطهطاوى" فكان سبباً فى تأسيس النهضة العربية منذ استنتج أن التوليف ما بين الاسلام والتقدم ممكن فصار الاقتصاد فى طريقه للتحرر وعمليات تنمية المجتمع مستمرة وكادت هذه النهضة أن تقود العالم العربى الإسلامى نحو الحداثة حتى استولى العسكر وبفظاظة على السلطة عام ١٩٥٢، فلفظ المشروع النهضوى أنفاسه الأخيرة بعد الإجهاز عليه من الخارج والداخل حيث تحالف العسكر والجماعات الأصولية الجديدة التى شكلت بدائل لـ"رفاعة الطهطاوى" أمثال "حسن البنا" و"سيد قطب" الذي طرح التساؤل من جديد لإجابة بالضرورة سلبية.. ما الفائدة من جلب الحداثة الغربية.. إذا كان الثمن هو خسران الروح من دون اللحاق بالغرب؟! ثم اتفقوا مع العسكر على ضرب اليسارين والمفكرين والمؤرخين والمثقفين والأدباء والفنانين وإفقارهم

بعزلهم عن الشعب ووضعهم فى قاعاتٍ مكيفة ليركلوا بعضهم البعض أو فى مقاهى ممتلئة بمخبرى الطرفين وذلك بدلاً من وضعهم فى مستشفيات المجانين"

أغلق الكتاب.. رماه إلى آخر جدار فى الغرفة فاصطدم به وطارت بعض أوراقه.. بسمل وشلح قميص نوم امرأته وظل يطعنها بغل فى رحمها حتى بشائر الفجر لكى يهدأ تماماً ولا يرتكب اليوم مساءاً أية غلطة تكون فى مصلحة هذا الزنديق الخائن.

ظل نائماً طوال النهار لا ينهض إلا لإقامة الصلوات وازدراد القليل من الطعام.. لا يأكل أبداً قبل عملياته الكبيرة يترك معدته فارغة ليكون خفيفاً حتى إذا استدعى الأمر الجرى أو العنف لمعالجة بعض الأمور التى لم تكن فى الحسبان.. سيدخل كما الخطة الموضوعة سلفاً من الشباك الصغير وسيطمئن أن الجميع نيام إلا الواحد الأحد.. سيتأمل وجهه المكور النائم وسيستمع إلى الصفير المنبعث من شفتيه.. سيتابع اهتزاز شعيرات أنفه القذرة التى تتحرك مع كل نفس يأخذه. بدأت أصابعه فى الارتعاش.. لقد شعر به.. كيف ينتبه النائم فى ميتته الصغرى هذه إلى وجود دخيل؟! أهى الرائحة؟.. احتلال حيز كان فارغاً؟! أمن خلخلة منظومة ما مجهولة؟! الحالة نفسها.. يجلس بهدوء فى انتظار استيقاظ ضحيته ليرسلها إلى نوم أبدى فترتعش بعد فترة الأصابع أو تختلج الأهداب.

عاجله بصوته الأجش وهو ما زال بين اليقظة والنوم:

– سواء صرخت كما النسوان أو خرست سيسفك دمك اليوم يا دكتور، لقد جئت أنفذ الفتوى الخاصة بك.. هل تعلم أن على وجهك غضب الله وأنت نائم؟.

اقترب منه وضع على صدره كتابه "مصر الآن" وتنهد قائلاً ببطء:

– قابل به الله يا دكتور.. هل تستطيع أن تقرأ هناك ما سطرت يداك؟!

صب له كوب ماء وأمره بشربه وبالهدوء نفسه قال:

– عمل إخوان الله على قضيتك كثيرا، وأهكتهم والله يا دكتور.. اكتشفوا أنك لست جاسوساً لأى من الجهات الصهيونية أو العالمية وإلا كانوا رموك ككلب للمخابرات المصرية ولم يدنسوا أيديهم بدمك القذر.. هل كل هذا الهراء معتقداتك ونتاج مخك الذى خلقه لك الله؟! ما الذى يغضبك من الاسلام والمسلمين يا دكتور؟!

رفع الدكتور "سيد الجيزاوى" رأسه عن الوسادة وبصرامة وصوت حاذر ألا يعلو جز على أسنانه:

– أمثالك يغضبونى. أنت وإخوانك.. هذا القطيع الجاهل يغضبنى.

وغطت وجهه تعابير الازدراء وهو يهمس بنفاد صبر:

– إنه ماجئت من أجله.. تعلم جيداً أننى لا أحب هذه الحياة وأمثالك فيها.

بادله ازدراءه بازدراء وهو يبتسم متهكماً:

– نعم سأفيه ولكن ألم تفكر فى هذا اليوم وأنت تكتب شهادة وفاة المسلمين؟!

– أنت لم تقرأ كتابى.. أنت لاتقرأ على الإطلاق.. كلماتى مقابل رصاصتك.. لوكانت لديك كلمات لرددت على بها.. ولكنك لاتمتلك إلا هذا المسدس وأراهنك أنك عالجته ليكون كاتماً أيضاً للصوت.

ثم نام على ظهره وذراعاه متصالبان فوق صدره وربما كان يبتلع

ابتسامة ساخرة، وعيناه فى عينى قاتله وهو يقول بإصرار وارتياح:

- لا كلام بعد الآن لامعك ولا مع غيرك

صعد الدم فى رأس "عونى حافظ" من الغيظ، ولا يدرى لماذا قفز أمام عينيه فى تلك اللحظة جسد "نفرت جاد" العارى ونظرتها المندهشة التى لم يستطع تحملها فأغلق عينيها.. لمح كاميرا فيديو على الكومدينو فلمعت عيناه وألقى بمسدسه الكاتم للصوت فجأة على الأرض.. نظر بغل إلى الدكتور "سيد الجيزاوى" وهو نائم بهدوء ولا مبالاة على ظهره وذراعاه متصالبان بكل وقار على كتابه.. ضبط الكاميرا عليهما وضغط على زر التشغيل ولم ينس أن يزحزح الكتاب بحيث يميل قليلاً إلى ناحية اليسار ثم همس من بين أسنانه متحيراً وهو يتأمل رأسه الأصلع.. من أين يمسك خروف مثلك؟! ولكنه نجح فى تثبيت أصبعيه على جانبى جبهته حتى دانت له رقبته فأخرج من جوربه سكيناً حاداً وظل يتأمل أخيراً وبفرح الرعب فى عينى الدكتور الجاحظتين ثم نظر إلى الكاميرا وهو يطلق جئيره الأجش.. الله أكبر

يبدو أن المخرج فى ورطة كبيرة فالمذيعة الجميلة لم تعد تدرى ماذا تقول، وتمت إعادة المادة المكتوبة عن القتيل والقاتل مراراً ولا يعلم "تاج العريان" ولا الدكتور "عبد الرحمن" ولا أحد من المشاهدين ما الذى يجعل صورة القاتل الصامتة المحدقة فى نقطة ما بلا نهاية صامدة هكذا على الشاشة؟ هز "عارف" رأسه وكأنه عائد من كابوس مروع وتوقفت دموعه عن الهطول وجسده عن الارتعاد ولكنه لم يجلس على مقعده إلا بعد أن نجح "عونى حافظ " - ربما قبل إزاحته بثوانى - فى الإجابه أخيراً عن السؤال الذى لم تسأله له قط المذيعة الجميلة... نعم.. يتم الأمر هكذا.

(١) قلفة .. رئيسة الخدم بالقصر.

(٢) يوم (٩)، (١٠) يونيو عام ١٩٦٧- صلاح عيسى .

(٣)أشرف المصرى --- أغنية شعبية .

(٤) جمود مفهوم الجنس عند العرب قبل وبعد ظهور الاسلام

(٥) الجمود.

(٦) الفجاجة .

(٧) التضييق .

(٨) البداية والنهاية للإمام ابن كثير.

(٩) معادلة الجريمة لإبراهامين

(١٠) الجبرتي بتصرف

الدار
للنشـــــر والتـــــوزيـع

ميس إيجبت

الفتـــــاة النحيفـة الملفوفـةالتـي كانتهـا " نسـل شـاه " تقـف مماثلة طـوال الوقت أمام عينيـه، لم يكن سـعيداً معها أبـداً فلقد توهمت أنـه يريدهـا محترمـة معه فـي الفـراش. هكذا علمتها أمها على ما يبدو. هامدة تحته كحشية، تعطيـه انطباعـا بـأن ينتهـي ممـا يفعل بسـرعة وهـى تشـعر بالعـار، نعـم .. العـار .. هـذه هـي الكلمـة المناسـبة ، وبمجـرد أن ينتهـي منهـا تهـرع إلـى الحمـام ، تتخلص سـريعاً من آثاره ورائحتـه وتعـود وكأنهـا فـي حفلـة اسـتقبال ، تصلـح وضـع باقـة الـروب، وتعطـى لـه ظهرها وهـى سـعيدة فقـد أثبتت لـه أنها قطـة مغمضة وجاهلـة وليسـت هائجـة على رجـل حتى ولو كان زوجها.

الدار
للنشر والتوزيع